بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله الذى عَلَّم بالقَلَم ، وأَلْهَمَ نوابغ الكَلِم ، وجعل الأَمثالَ والحِكَم : أَحسنَ أَدبِ الأُمَم . وصلى اللهُ وسلَّم على محمدٍ دِيمةَ البيان المنسَجِمة[1] ، وعلى موسى الكليم وعيسى الكلمة[2] .

وبعدُ ؛ فهذه فُصولٌ من النثر ، وما زعَمتُ أنها غُرَرُ زياد[3] أَو فِقَرُ الفصيح من إياد[4] ، أَو سَجْعُ المُطوَّقةِ على فرعِ غصنها الميَّاد[5] ، ولا توهمتُ حين أَنشأتُها أَنى صنعْتُ « أَطْواقَ الذهب » ، للزَّمَخْشَرِىّ[6] ، أَو طبعتُ « أَطباقَ الذهب » ،

---

(١) الديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق . والمنسجم : السائل المنصب.

(٢) الكليم : لقب موسى لأنه كلم الله . والكلمة : لقب عيسى ، عليهما السلام .

(٣) زياد بن أبيه من أشهر خطباء الدولة الأموية .

(٤) هو قس بن ساعدة الايادى ، ويكاد يكون أخطب خطباء الجاهلية . والفقر : جمع فقرة ، وهى من النثر بمنزلة البيت من الشعر .

(٥) الميَّاد : الكثير الميد . والميد : الميل والتحرك .

(٦) أطواق الذهب ، وأطباق الذهب : كتابان من كتب المقامات فى الوعظ والارشاد ، وكلاهما فى عليا مراتب البلاغة : الأول لجار الله الزمخشرى . والثانى للعلامة الأصفهانى عليهما رحمة الله .

للأصفهانىّ ـ وإن سميْتُ هذا الكتاب بما يُشبهُ اسميهما ، ووسمتُه[١] بما يَقْرُبُ فى الحسن من وسْمَيْهما ـ وإنما هى كلماتٌ اشتملَتْ على معانٍ شتَّى الصُّورَ وأغراض مختلفةِ الخَبَر ، جليلةِ الخَطَر ؛ منها ما طال عليه القِدَم ، وشاب على تناوُلِه القَلم ، وألَمَّ به الغُفْلُ[٢] من الكُتَّابِ والعَلَم[٣] . ومنها ما كثُرَ على الألسنة فى هذه الأيام ، وأصبَح يَعْرِضُ فى طُرُق الأقلام وتجرى به الألفاظُ فى أعِنَّةِ[٤] الكلام ؛ مِن مثْل : الحرية والوطن ، والأُمة ، والدُّستور ، والإنسانية وكثيرٍ غير ذلك من شئون المجْتَمَع وأحوالِه ، وصفاتِ الإنسان وأفعالِه أو ما له علاقة بأشياءِ الزمن ورجالِه ؛ يكتَنفُ ذلك أو يمتزجُ به : حِكَمٌ عن الأيام تلقيْتُهَا ، ومن التجاريب استَمْلَيْتُها ، وفى قوالب العربيةِ وعيتها[٥] وعلى أساليبها حَبَّرْتُها ووشَيْتُها[٦] ؛ وبعضُ هذه الخواطر قد نَبَعَ من القلب وهو عند استِجْمَام عفْوِه[٧] ، وطَلَع فى الذهن وهو عند تمام صحْوِه وصفْوِه ؛ وغيرُهُ

---

(١) وسم الشيء : جعل فيه أثرا . والوسم : الأثر والعلامة .
(٢) الغفل : المجهول .
(٣) العلم : المقدم .
(٤) أعنة : جمع عنان .
(٥) وعى : حفظ .
(٦) حبر الكلام ووشاه : حسنه وزينه .
(٧) استجم الماء استجماما : كثر واجتمع . والعفو من الماء : ما فضل عن الشاربة وأخذ من غير كلفة ولا مزاحمة .

– ولعله الأَكثر – قد قيل والأَكدارُ ساريَة ، والأَقدار بالمكاره جارية ، والدار نائية ، وحكومة السيف عابثة عاتية ؛ فأَنا أَستقيل القارىء فيه السَّقَطَات ، وأَستوهِبُه[1] التجاوُزَ عن الفَرَطَات[2] .

اللهمَّ غيرَ وجهكَ ما ابتغَيْت ، وسوى النفعِ لخلقكَ ما نَوَيْت ، وعليك رجائى أَلْقَيْت . وإليك بذُلِّ وضَعْفى أَنتهيت .

---

(١) استوهبه : سأله الهبة .

(٢) الفرطات : جمع فرطة ، وهى ما فرط من الشخص من تقصيره .

الحقيقة الواحِدَةُ (١)

يا مُتابِعَ المَلَاحِدَة ، مُشَايِعَ العُصْبةِ الجاحدة ، منكر الحقيقة الواحدة : ما للأعمى والمرآة ، وما لِلمُقْعَد (٢) والمِرْقاة (٣) ، ومالَكَ والبحثَ عن الله ؟

قُم إلى السماءِ تَقَصَّ (٤) النظر ، وقُصَّ الأَثر (٥) ، واجمع الخُبْرَ والخَبَر (٦) . كيف ترى ائتلافَ الفَلَك ، واختلافَ النور والحَلَك (٧) وهذا الهواء المشترك ، وكيف ترى الطيرَ تحسَبُه تُرِك ، وهو فى شَرَك (٨) ، استهدَف فما نجا حتى هَلَك (٩) ، تعالى الله ! دَلَّ

---

(١) الحقيقة الواحدة : وجود الله سبحانه وتعالى ، ولعل المؤلف يشير إلى قول لبيد

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل

(٢) المقعد : الذى يشكو القعاد : وهو داء يقعد المصاب به عن المشى .

(٣) المرقاة : السلم .

(٤) أرسله إلى أقصاه .

(٥) قص الأثر : اقتفاه .

(٦) الخبر : الاختبار بالمشاهدة والخبر : الرواية بالسماع .

(٧) الحلك : الظلام .

(٨) تظنه حرا طليقا ، وهو أينما حل فى متناول قبضة الصياد .

(٩) استهدف : أصبح غرض السهام . والمراد أنه لا يكاد ينجو من سهم مصوب إليه حتى يدركه الموت من سهم آخر .

المُلْك على المَلِكِ ! . وقِفْ بالأَرضِ سَلْهَا من زَمَّ[١] السحابَ وأجراها ، ورَحَلَ[٢] الرياحَ وعَرَّاها[٣] ، ومن أقعدالجبالَ وأنهضَ ذُراها[٤] ، ومن الذى يَحُلُّ حُباها[٥] ، فتخِرُّ له فى غدٍ جِباها؟ أليس الذى بدأها غَبَراتٍ[٦] ، ثم جمعها صخَرات ، ثم فرَّقها مُشمَخِرَّات[٧] ؟ . ثم سَلِ النملَ مَنْ أَدَقَّها خَلْقاً[٨] . ومَلأَها خُلُقا[٩] ، وسَلَكَهَا طُرُقا[١٠] تبتغى رزقا ؟ وسلِ النحلَ مَنْ أَلْبَسَها الحِبَر[١١] ، وقَلَّدها[١٢] الإِبَر ، وأَطْعمَها صَفوَ الزَّهر ،

---

(١) زم الناقة : خطمها .

(٢) رحل البعير : شد على ظهره الرحل تمهيدا للمسير .

(٣) عراها : جردها مما فيها من أمطار .

(٤) أقعد الجبال : ثبت قواعدها فى الأرض . وأنهض ذراها : أى رفع عاليها شامخة فى السماء .

(٥) يحل حباها : أى يفكها من حبوتها وينهضها من ربضتها .

(٦) غبرات : جمع غبرة — بتسكين الباء — وهى ذرة الغبار .

(٧) فرقها : فى الأرض . ومشمخرات : أى باذخات .

(٨) أدقها : صيرها دقيقة .

(٩) خلق النمل : تلك النظم المتسقة التى يوحى لها بها الالهام .

(١٠) سلكها طرقا : جعل لها طرقا تسلكها .

(١١) الحبر : جمع حبره كعنبة ، وهى برود يمنية ملونة ، وقد شبه بها المؤلف تلك الألوان الزاهية التى يتخايل بها النحل تحت أشعة الشمس .

(١٢) قلده السيف : وضع حمالته فى عنقه .

وسخَّرَها طاهيةً[١] للبشر ؟ لقد نبذتَ الذَّلولَ[٢] المُسْعِفَةَ[٣] ، وأخذتَ فى معامِى[٤] الفَلْسَفَة ، على عَشواءَ من الضلالِ مُعْسِفَةَ[٥] . أوْلَا فَخبِّرْنى : الطبيعةُ مَنْ طبَعَها[٦] والنُظُم[٧] المتقادمَةُ مَنْ وضَعَهَا ، والحياةُ الصانِعَةُ مَنْ صنَعَهَا ، والحركةُ الدافعةُ مَنِ الذى دَفَعَها ؟ ! عرَفْنا كما عرفتَ المادَّة ، ولٰكنْ هُدينا وضَلَلْتَ الجادّة[٨] ، وقُلنا مِثلَكَ بالهَيولَى[٩] ولكنْ لَمْ نَجْحدِ اليدَ الطُّولَى[١٠] ولا أنكرْنا الحقيقةَ الأُولى[١١] . أَتينا العناصرَ مِنْ عُنْصُرها[١٢] . وَرَدَدْنا الجواهرَ إلى جوهرِها[١٣] ،

---

(١) طاهية : طابخة تطبخ للناس فى بطونها عسلا .

(٢) الذلول من الدواب : ما كانت سهلة القياد ، والمراد بها هنا الشريعة السمحة .

(٣) المسعفة : التى تسعف أبناءها باليقين والايمان .

(٤) المعامى : المجاهل .

(٥) العشواء : العمياء وأعسف : خبط فى السير .

(٦) طبعها : خلقها ، وهنا يبدأ المؤلف فى تعجيز الملحدين .

(٧) النظم المتقادمة والحياة الصانعة والقوة الدافعة ، وكل هذه قوى يظن الملحدون كفرا أنها هى الأصل فى الكائنات .

(٨) الجادة : الطريق القويم .

(٩) الهيولى : مادة ، وشبه الأوائل طينة العالم بها .

(١٠) اليد الطولى : يد الله التى أبدعت هذه الطينة ونفخت فيها الروح .

(١١) الحقيقة الأولى : وجود الله .

(١٢) العناصر : جمع عنصر ، وهو أولا بمعنى المادة البسيطة ، وثانيا بمعنى الأصل وأتيناها : أى بحثنا فيها .

(١٣) الجواهر : جمع جوهر ، وهو الحجر يستخرج منه شىء ينتفع به . والجوهر ثانيا بمعنى الأصل والجبلة .

اطَّرَحنا[1] فاستَرَحْنا وسلَّمْنا فَسَلِمْنا ، وآمَنَّا فأَمِنَّا ؛ وما الفَرقُ بيننَا وبينَك إلا أنكَ قد عَجَزْتَ فقلتَ : سرٌّ مِنَ الأَسرار وعَجَزنا نحن فقلنا : اللهُ وراءَ كلِّ سِتار ! !

---

(١) اطرح الحمل : ألقاه عن عاتقه ، والمقصود من هذه الجملة وما بعدها : امنا بالله وتركنا ما دون هذا من التفكير العقيم الذى لا نهاية له والبحث الضال الذى لا يؤمن فيه العثار . . .

الوطن

[حبّ الوطن والتفانى فى سبيله سجية كل نفس كبيرة . وقد أوحت هذه العاطفة بأعظم ما حفظه لنا التاريخ من المآثر وجليل الأعمال ، وأبلغ ما جادت به القرائح من روائع الآيات والأقوال .

ولقد طالما أشاد «المؤلف» فى شعره بذكر الوطن وتغنى بوصف آثاره الخالدة بقصائد تضمن لها بلاغتها من الخلود ما لتلك الآثار . ولطالما استخلص من بيانه سحرا أحيا مفاخر الآباء والأجداد ، فبعثها من لحود الأجيال الغابرة تتمثل عظمتها ورَوْعتها للأبناء والأحفاد .

لم يقف «المؤلف» من آثار وطنه وقوف العرب على الطلول يبكيها ويرثيها ، بل مسحها بدموع قلبه ليُحييها ويستوحيها . فجعل من تغنيه بما كان من المفاخر للوطن فى الغابر من الزمن حُداءً منه للخلف لاحتذاء آثار السلف .

ولو جمع جامع ما قال المؤلف فى مفاخر الوطن من يوم قال منذ ثلاثين سنة :

وبنينا فلم نُخَلِّ لبانٍ وعلونا فلم يَجُزْنا عُلاءُ

لاجتمع لديه خير سِفْرٍ شامل للدروس الوطنية .

وهذه القطعة من الشعر المنثور أنشودة عذبة للوطن جمع فيها كاتبها جميع الأنغام التى يثيرها ضرب الوطنية الصادقة على أوتار القلوب كما سنبينه فى ما نعلقه عليها من الحواشى] :

الوطن موضعُ الميلاد ، ومجمعُ أوطارِ الفؤاد ، ومضجعُ الآباءِ والأجداد[١] ، الدنيا الصُّغرى ، وعتبةُ الدار الأُخرى ، الموروث الوارث ، الزائلُ عن حارث إلى حارثٍ ، مؤسِّسُ لبانٍ ، وغارسُ لجانٍ . وحيٌّ من فانٍ ، دَواليْكَ حتى يُكسَفَ القَمران ، وتَسكنَ هذى الأرض من دوران .

أول هواءٍ حرَّك المرْوحتين[٢] ، وأول تُرَاب مسَّ الرَّاحتَيْن : وشعاعِ شمس أغترق العين ؛ مَجرى الصِّبا وملعبُه ، وعُرُس الشباب وموكِبُه ، ومرادُ الرزقِ ومَطْلَبُه ، وسماءُ النبوغِ وكوكبُه ، وطريقُ المجد ومركَبُه ؛ أبو الآباءِ مُدَّتْ له الحياةُ فخلَدَ ، وقضى الله ألَّا يبقى له ولد ؛ فإن فاتك منه فائت

---

(١) جاء فى مقدمة الجزء الأول من الشوقيات : «إنها « مصر » بلادى ، وهى منشأى ومهادى ، ومقبرة أجدادى ؛ ولد لى بها أبوان ، ولى فى ثراها أب وجدان ، وببعض هذا تحبب إلى الرجال الأوطان » . والوطر : الحاجة والغرض . والحارث : الزارع . ودواليك : أى مداولة بعد مداولة .

تناول الكاتب فى هاتين الفقرتين وصف الوطن عن طريق التحديد ، وهو كما حدده ابن سينا فى رسائله : الحد الجامع المانع ، أى الوصف المحيط بمعنى المعرف المميز له عن غيره . فوصف الوطن بالمؤسس للبانى ، والغارس للجانى ، وبمجرى الصبا وملعبه ، وعرس الشباب وموكبه . . . إلى غير ذلك من الأوصاف ، كما وصفه بموضع الميلاد . ومضجع الآباء والأجداد ، وأول هواء حرك المروحتين ، وأول تراب مس الراحتين إلى غير ذلك من الأوصاف المانعة المميزة له عن سواه . وهكذا جاء بخواص المعرف وأوصافه وأعراضه التى من شأنها أن تبين حقيقته .

(٢) المروحتان : الرئتان . والراحتان : الكفان . واغترق العين : أى شغلها عن النظر إلى غيره .

فاذهب كما ذهب أبو العلاء عن ذكر لا يفوت ، وحديثٍ لا يموت .

مدرسة الحقِّ والواجب : يقضى العمرَ فيها الطالب ، ويقضى وشيء منهما عنه غائب ؛ حقُّ الله وما أقدسَه ، وأقدَمَه وحقُّ الوالدين وما أعْظَمَه ، وحقُّ النفس وما ألْزَمَه ؛ إلى أخ تُنصفُه ، أو جار تسعفُه ، أو رفيقٍ فى رِحال الحياة تتألَّفُه ، أو فضل للرجال تُزيِّنه ، ولا تزيِّفه[1] ، فما فوق ذلك من مصالح الوطن المقدَّمة ، وأعباءِ أماناتهِ المعظَّمة ؛ صيانةُ بنائهِ ، والضَّنانةُ[2] بأشيائهِ ، والنَّصيحةُ لأبنائه ، والموتُ دونَ لوائه ؛ قيود فى الحياة بلا عَدد . يكسرُها الموتُ وهو قيدُ الأبد .

رأسُ مالِ الأُمم فيهِ من كلِّ ثَمَرٍ كريم ، وأثرٍ ضئيل أو عظيم ، ومُدَّخَرٍ حديثٍ أو قديم ؛ ينمو على الدِّرهم كما ينمو على الدِّينار ، ويَربو على الرَّذاذِ كما يَرْبو على الوابِل المِدرار بَحْرٌ يتقبَّلُ من السُّحُب ويتقبلُ من الأنهار . فيا خادمَ

---

(١) زيف الرجل : صغر به وحقر .

(٢) الضنانة بالشيء ، كالضن به : البخل والحرص عليه .

تناول الكاتب فى هذه الفقرة حقوق الوطن على أبنائه أو واجبات الوطنيين نحو وطنهم ففصلها أجمل تفصيل ، دون أن يفوته وصف كل حق بوصفه اللازم : من حق الله وحق الوالدين وحق النفس إلى حق الاخوان وسائر أبناء الوطن : مجموعة حقوق يتألف منها حق الوطن على كل إنسان ، ولو أدى القيام بهذا الحق إلى التضحية بالنفس دفاعا عن الوطن . ثم قال : إن هذه الواجبات ينبغى للانسان القيام بها فى جميع أدوار الحياة ، فلا ينعتق منها إلا بالممات .

الوطَن ماذا أَعدَدْتَ للبناءِ من حَجَر ، أَو زِدْتَ فى الغَنَّاءِ من شَجر ؟ عليك أَن تبلُغَ الجُهد ، وليس عليك أَن تَبْنِىَ السدّ ؛ فإنما الوطن كالبُنيانِ فقيرٌ إلى الرأسِ العاقلِ ، والساعدِ العامل وإلى العتَبِ الوضيعة ، والسقوفِ الرَّفيعة ، وكالروضِ محتاجٌ إلى رخيصِ الشَّجر وثمينهِ ، ونَجيبِ النباتِ وهجينهِ إذ كان ائتلافُه فى اختلافِ رياحينه ، فكلُّ ماكان منها لطيفاً مَوقِعُه ، غير نابٍ به موضعهُ ، فهو من نوابغِ الزَّهرِ قريب ، وإن لم يكنْ فى البديعِ ولا الغريب (١) .

حظيرةُ(٢) الأَعراضِ والعُروضِ ، ومحرابُ السُّنَنِ والفُروض ،

---

(١) الرذاذ : المطر الضعيف والمال القليل . والوابل المدرار : المطر الشديد الضخم القطر . والنجيب : الكريم الحسيب من الانسان والحيوان . والهجين : من أبوه خير من أمه . وناب : أى نافر .

يريد : أن كل إنسان مهما ارتفع شأنه أو اتضع مكانه قادر على خدمة الوطن بل هو مطالب بتلك الخدمة .فعمد موفقا إلى التشبيه والاستعارة فقال إن البناء محتاج إلى العتب الوضيعة والسقوف العالية وإن الروض لا يتم بهاؤه وجماله إلا بمختلف الأزاهير والرياحين .

وقد انتقل من الاخبار إلى الخطاب فقال : فيا خادم الوطن ماذا أعددت . . . وهو التفات بليغ .

(٢) الحظيرة — فى الأصل — مأوى الابل والغنم . والأعراض جمع عرض وهو المتاع . والعروض : جمع عرض وهو الشرف . البوغاء : مايثور من الغبار ودقاق التراب . والضنائن : جمع ضنينة ، وهو ما يضن به . والحجال : جمع حجلة ، وهى ستر العروس داخل بيتها .

يفند الكاتب مزاعم أصحاب مذهب اللاوطنية القائلين بأن الأرض جميعها وطن للناس جميعا . وضرب السمك فى البحر : مثلا لضرر الشيوعية فى الوطن . وقرى النمل وخلايا النحل ، وأوكار الطير ، وأحجار السباع : أماكنها ومنازلها .

سيدُ الأَديم ، صفحاته التاريخ الكريم ، وبوغاؤه عِظَمُ الأُبُوَّة وإنه لعظيم ، وعلى جوانبه الدولةُ وهى حَسَبُ الأُمَمِ الصميم ؛ وثَمَّ كرائم الأَموالِ والأَنْفُسِ وهى غَوَال ، وثم ثمراتُ الرِّجال وضنائنُهم اللاتى خَلْفَ الحِجال . فياعجبًا كيفَ يَجْحَدُ الأَوطانَ الجاحد ، أو يزعمُ أن الأَرضَ كلَّها وَطَنٌ واحد ؛ قضيةٌ تُضحِكُ النملَ فى قُراها ، والنَّحلَ فى خلاياها ؛ وتَستبهمُ على الطَّيرِ فى أَوكارها . وعلى السِّباعِ فى أَحْجارِها وينبئُك عنها السَّمكُ إذِ اتخذَ من البحر وطنا شائعا ، فوُلِدَ مهدورًا وعاشَ ضائعا ، صِغارُه طرائد ، وكِبَارُه موائد . ويَتَصيَّدُ بعضُه بعضاً إن أَبطأَ الصَّائد .

والوطنُ شَرِكَةٌ (١) بينَ الأَوَّلِ والآخِر ، وبين الحاضِرِ والغابر ، لا يرِثُ لها عَقْد ، وإن تطاول العهد ، مؤَسَّسةٌ بالمهد حيناً وباللَّحد ، يُدْخِلُك فيها الميلاد ، ولا يخْرِجُك منها النفاد ، فقد تُضرِمُ النارَ وأَنتَ حامدٌ كالرَّماد ، وقد تَحْيا بلك الدِّيارُ وأَنتَ بوادٍ والحياةُ بواد .

---

(١) كنى عن ارتباط حاضر الوطن بماضيه بشركة معقودة بين السلف والخلف يرث : يبلى . ويريد باضرامك النار وأنت هامد كالرماد ، وباحيائك الديار بعد خروجك من الحياة : أن الأموات كثيرا ما يكونون بمثل حياتهم العالى أكبر حامل للاحياء على حميد الفعال . وبهذا المعنى قال أحد فلاسفة الفرنجة : يتألف الوطن من الأموات أكثر مما يتألف من الأحياء .

والوطنُ مستودَعُ المفاخر وصِوَانُ المآثر ، وَخِزَانَةُ الأَعْلَاقِ والذَّخائر ، لكلٍّ مُتقنٍ منها موقِعه ، ولا يَنبو بصالحٍ فيها موضِعُه ؛ الهرمان لديها معظَّمان : « وشيخُ البلد » شيخ الصناعةِ على الزمان ؛ وعندها سيفُ « علىٍّ » ومغارِسُه ، وقناةُ « إسْمَاعيلَ » ومدارِسُه ، وفيها القصائدُ البارودِيَّة ، وليس فيها الخطب النَّديميَّة ؛ تلك لقُرْبها من كلامِ الحكمة ، وهذى لبُعدِها عن الإتقان والحِشمة ؛ فيالكِ خِزانةً تُميِّزُ الصِّحاح من الزيوف ، وتعرفُ الضَّيْفَنَ من الضيوف ، وتحجُبُ العصِيَّ وتأْذَنُ للسيوف[1] .

صحيفةُ الأَخبار ، وكِتابُ الأَبْرار ، وسِجِلُّ الهِمَمِ الكِبار أَسماءُ المحسنين فيه مَرْفوعة ، وَأَفعالُهم مَثَلٌ للخَلَفِ منصوبة ، وحروفٌ بماءِ الذهب مكْتوبَة ؛ فإذا أَتت السنون ، ودارت على الرِّجال المنون ، ولحِقَتْ بالمشايعِ الشِّيَع ، وذهب المتبوعُ والتَّبَع ؛ ونامت الحَرَابِيُّ[2] عن الشموس ، وحِيلَ بين النارِ

(١) صوان الشيء : وعاؤه . وأعلاق الأشياء : نفائسها . والزيوف : الدراهم المغشوشة . والضيفن : من يجيء مع الضيف متطفلا .

والمراد : أن الوطن يحفظ مآثر الرجال ، وقد ضرب ماتراه فى المتن من الأمثال عما يحفظه الوطن المصرى للمصريين ، ثم انتقل فى الفقرة التالية من التخصيص إلى التعميم . وشيخ البلد : آية من آيات فن النحت عند قدماء المصريين ، يجده الناظر فى دار الآثار . وقناة إسماعيل : قناة السويس . والبارودية : نسبة إلى محمود سامى باشا البارودى . والنديمية : نسبة إلى عبد الله نديم .

(٢) الحرابى : جمع حرباء : حيوان معروف يستقبل الشمس ويدور معها كيفما دارت ويتلون ألوانا .

وبينَ المَجوس ؛ انفتح كتابُ الوطن من نفسهِ وإذا الحسناتُ ثَمَّ على الصدق مُحْصاة ، فلا الحصاةُ دُرَّةٌ ولا الدُّرَّةُ حصاة ؛ وإذا الرجالُ يُعَظَّمُون على الأَفْعال ، وإذا الوقائعُ قد نُحِتَ منها الأَبطال ؛ على قدر العمل يأتى الجزاءُ ، وبِقَدْر جمال الأَثر يكونُ حسنُ الثناء .

وليس أَحَدٌ أَوْلى بالوطن مِنْ أَحَد ، فما « باستورُ »[١] والشفاءُ فى مَصْلِه ، ولا « كمالُ » والحياةُ فى نَصْلِه : أَولى بأَصل الوطن وفصلِه ؛ من الأَجير المحسنِ إلى عِيالِه ، الكاسِبِ على أَطفالِه ، الفادى الوطنَ بأَشبالِه ، وهم رأْسُ ماله ؛ فلا تَتَحَمَّدْ[٢] على الأَوطان بآثار كرم ، وإن حَمَلْتَ عليها الهَرم أَو نَقَلْتَ إليها إرم ، فإنك لم تَزِدْ على أَن أَقمت جدارَك ؛ وحسَّنْتَ دارَك ؛ ولا تنسَ أَنها الآلةُ التى رفعتْك ، والهالةُ التى أَطلعتْك ؛ ولا تحجُبْ ذاتَ الوطن بذاتِك ، أَو تَطْرِف

---

(١) « باستور» عالم كيماوى فرنسى (١٨٢٢ — ١٨٩٥) صاحب مباحث نظريه الميكروبات فى الأمراض المعدية ، ومخترع المصل الواقى والشافى ، وهو من أكبر الرجال الذين خدموا الانسانية بعلمهم . «وكمال» هو الغازى مصطفى كمال باشا أحد أنقره وبطل تركيا المشهور . والقذاة : مايقع فى العين ويوجعها . والسرح : شجر : وقد أبدع فى تشبيه من يمن على الوطن بخدمته : بالشجرة التى ترتفع عن الأرض وتتعاظم عليها ، وهى إنما تمص منها مادة الحياة .

(٢) تتحمد : تمتن . وحمل عليه الشىء : ألحقه به . والهالة : دارة القمر . وطرف البصر عنه : صرفه .

العيونَ عن وجههِ بقَذاتك ؛ ولا تكنْ كالسَّرح العظيمِ إذ نسِيَ خلقَه إذ علا على الأَرض وهى أُمُّه ، ماؤها عُصارةُ عودِه ، وطينُها جُرثومة وُجودِه ؛ حتى إذا ترعْرَعَ وكَبِر أَخفاها وظهَرَ ، وحجبَ عنها الشمسَ والقَمر ، خلعَتْ عليه مانَضَرَ ورَفَّ ، وألقى عليها مايَبِسَ من الورق وجفَّ .

والوطنُ لا يَتِمُّ تمامُه . ولا يَخْلُصُ لأَهله زِمَامُه ، ولا يكونُ الدارَ المستقِلَّة ، ولا الضَّيْعَةَ الخالصةَ الغلَّة ، ولا يقالُ له البلدُ السيد المالك ، وإن تحلَّى بأَلقاب الدُّوَل والممالك ؛ حتى يُجيل العلْمُ فيه يَدَ العمارة . ويجمع له بينَ دُولاب الصِّناعةِ وسوق التِّجاره [1] .

فيا جيل المستقبل ، وقبيلَ الغد المؤمَّل ؛ حاربوا الأُمِّيةَ فإنها كَسْحُ الأُمم وسَرَطانُها ؛ والثَّغرةُ التى تُؤتى منها أَوطانُها ظُلماتٌ يُعَرْبِدُ فيها خُفَّاشُ الاستبداد ، وقبورٌ كلُّ ما فيها

---

(١) رف النبات اهتز . والدولاب : الآلة . والكسح : داء فى البدين والرجلين يشلها عن الحركة .

وقد انتقل الكاتب من الوصف والتحديد البيانى إلى ذكر الدعائم التى تبنى عليها عظمة الوطن ويشاد عليها صرح استقلاله وهى العلم والتجارة والصناعة ، وحذر بنوع خاص من أنصاف الجهال أو أنصاف المتعلمين كما حذر من الجهل . وبمناسبة ذكر «باستور» فى الفقرة السابقة نذكر أن هذا الرجل العظيم كان يقول «قليل من العلم يبعد عن الله ، وكثير من العلم يعيد إلى الله» .

لِضَبُعِه غنيمةٌ وزاد ؛ وتَذرَّعوا[١] بذرائع العلْم الصحيح ، أطْلبُوه فى مدارس الزمان وحلَقَاته ، وخذوهُ عن جهابذَتهِ وثِقاتِه ؛ واعلموا أنَّ أنصافَ الجُهَّال : لا الجهلَ دفعوا ، ولا بقليل العلم انتفعوا ؛ وبَنُو الوطن الواحد إخوةٌ وإن ذَهَبَ كلُّ فريقٍ بكتاب ، ووصلَتْ كلُّ طائفةٍ من باب ؛ واتَّبَعَ أُناسٌ الإنجيل ، وأُناسٌ اتَّبعوا التَّنزيل ؛ وكلُّ بلادٍ تسوسُها حكومةٌ فاضِلة ، وتُقَيِّدُها القوانينُ العادِلة ، وتَعْمُرُها جماعةٌ عاقِلةٌ عامِلة ، إنما يُفْرَقُ فيها بين الوطن الذى هو الحياةُ وَشُئونُها ، والدُّنيا وشُجونُها ، والحكومة نُظُمُها وقانونها ، والمملكة سُهولها وحزُونها ، والدُّولة أطرافها وحُصُونها ؛ وبينَ الدِّين الذى هو السَّماءُ الرفيعة ، والذِّرْوَة المنيعة ؛ ولاية الضمائر وسياسة السرائر[٢] .

وما وطنُ المحسنينَ إلا الأُسْرة الكبرى ، والسقفُ الواحد والمنزلُ الحاشد ، القومُ فى ظلالِه ، على البِرِّ وخلالِه ؛ إخوانٌ مُتصافُون ، وأهلٌ مُتَناصفُون ، وجيرانٌ مُتآلفون ، قَصْدٌ فى

---

(١) تذرعوا : أى توسلوا

(٢) ألا يكون الدين داعية تفرقة فى الوطن ، ولله در المؤلف حيث يقول شعرا كما يقول هنا نثرا :

الدين لله من شاء الاله هدى لكل نفس هدى فى الدين يعنيها

التنزيل : القرآن . الحزن — من الارض : ما غلظ .

البَغضاء . وبُعدٌ عن الشَّحْناء ؛ ألسنةٌ عفيفة العَذَبات[1] ، وصدورٌ نظيفة الجنَبات ؛ تراهم كالنَّحْل إن سُولمتْ عَمِلَتْ العَسل . أو حُورِبَتْ أعْمَلَتْ الأَسَل ؛ فاطْبَع اللهُمَّ كِنَانَتَك على هذا الغِرار ، وأعِدْها كما بدأتَها مَحِلَّة الأبرار . واجعل أبناءَنا أحرارًا ولا تجعلْهم أنصافَ أحرار .

رَبَّنَا وأنزِلْهُمْ على أحكام العقول وقضايا الأخلاق ، ولا تُخْلِهِمْ من العواطِف ، وإن كنَّ عواصِف ؛ ولا تَكِلْهُمْ للأهواء فإنها هواءٌ ؛ وخُذْهُمْ بروحِ العصرِ وسُنَّةِ الزمان ، واجعلْهُم حَفَظة العرْش وحَرَسَةَ البرلمان[2] .

---

(١) العذبات : الأطراف . والأسل : الرماح ، وهنا بمعنى الابر . الغرار : المثال الذى تضرب عليه النصال .

(٢) ونعم ما ختم به من الدعوة إلى الوئام والتصافى حتى تعود الكنانة إلى سابق مجدها . ولم يكن يسعه أن يختم نشيد الوطن هذا دون الاثر على وتر الأخلاق ، وهو الذى طالما دعا إلى الأخلاق ، بل هو القائل ذلك البيت المشهور الذى لانعرف بيتا كان أكثر منه موضوع استشهاد للكتاب والأدباء فى ربع القرن الماضى :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... ان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

الجندي المجهول

[تكريم الجندى المجهول : فكرةٌ أوحت بها الرغبةُ فى تمجيد البطولة الصامتة : البطولة التى تعمل فى الخفاء ، ولعلَّ هذه الفكرة أجمل ما ولدته الحربُ الكبرى من الأفكار .

مَن هو الجنديّ المجهول ؟ وما هى حكايتهُ ؟

اسمع تلك الحكاية ففيها عبرةٌ وذكرى :

أودت الحرب العالمية الأخيرة بآلاف من الجنود البُسَّل ، وكل منهم يدافع عن قومه وبلاده ، فسجلت أسماؤهم على ألواح البرونز وقطع المرمر تخليدا لذكرهم . ولكن هناك من بينهم مئات الألوف ماتوا كذلك ميتة الأبطال ولكن أسماءهم ضاعت لأن جثثهم الممزقة اختلطت بجثث رفاقهم فلم يكن من سبيل إلى تبيُّن شخصهم أو تحقيق هويتهم ؛ لذلك أرادت فرنسا — وحذت سائر الدول حَذْوَها — أن تتخيّر واحدا من هؤلاء الأبطال المجهولين ترفعه إلى ذِروة المجد وتقيم له من معالم التكريم ما لم تُقمه لأكبر الغزاة الفاتحين ، فتُكرم فى شخصهِ المجهول مئات الألوف من الأبطال الذين تنكَّرت جثثهم على الناس .

هذا منشأُ تلك الفكرة النبيلة ؛ فاسمع الآن كيف كان تنفيذها فى فرنسا :

كانت موقعة « فردان » أعظم مَوْقِعَةٍ دارت رحاها بين أعظم جيشين فى العالم ، دامت شهورا طوالا وسالت فيها مهج مئات

الألوف على شظايا القنابل وظبى السيوف حتى أصبحت أرجاؤها جبانة مترامية الأطراف .

ومن القتلى الراقدين فى ثراها تقرّر اختيار الجندى المجهول ، فأخذوا من أنحاء ذلك الميدان العظيم ثمانى جثث لم تعرف لمن هى . اختاروا ثمانيةً من بين خمسمائة ألف قتيل ، ووضعت كل جثة فى نعش ونقلت النعوش الثمانية فى ليل ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢٠ إلى حصن «فو» حيث أوقدتْ حولها الشموع وقامت الجنود تحرسها ، ثم تقدم القائد وأشار إلى أحد جنود الفرقة ١٣٢ فخرج الجندى من الصف ودفع إليه القائد باقةً من زهر القرنفل الأبيض والأحمر وقال له أن يدور دورتين حول النعوش الثمانية فيلقى بالباقة على نعش منها . ففعل ، وما كاد يلقى زهرات القرنفل على أحد النعوش حتى عزفت الموسيقى بنشيد المرسليز ورفع الضباط سيوفهم للتحية . ومن تلك الدقيقة أصبح الراقد فى ذلك النعش مثال التضحية والتفانى ، وصار تكريمه تكريما للمليون ونصف المليون من الجنود الذين قتلوا فى الحرب دفاعا عن فرنسا وطنهم .

ثم نقل ليلا إلى باريس . وفى اليوم التالى أقيم له احتفال نَدَرَ أن شَهِدت تلك العاصمة العظيمة ما يضارعه فخامةً وأبهةً وتأثيرا فى النفوس ، مشى فى موكبه الوزراء والقوّاد ورجال الدولة وعشرات الألوف من الناس تتقدمهم ٨٠٠ راية من رايات فِرَق الجيش المختلفة حتى وصلوا به إلى «قوس النصر» حيث قام ضريحُه ، وعلى أثر ذلك أصبح الآباء والأمهات والأزواج والأخوات

يحجون إلى هذا الضريح وكلّ يعتقد أن فيه ابنا أو زوجا أو أخا . وما زار باريس ملكٌ أو وزير أو كبير إلاعَدَّ من أول فروض المجاملة زيارة قبر الجندى المجهول وتحيته ووضع الزهر عليه .

وما كان للمؤلف أن يترك مثل هذا الموضوع بلا جولة لخياله فيه ، وقد أراد أيضاً أن يضع زهرة من زهر أدبه الرائع على ضريح الجندى المجهول ، فكتب هذا الفصل] :

ذلك الغُفْلُ فى الرِّمَم ، صار نارًا على عَلَم ، جَمَعَ ضحايا الأُمم ، كما جَمَعَ الكتابةَ القلم ، أو الكتيبةَ العَلَم[1] .

تِمثالٌ من إنكار الذّات ، والفناء فى بقَاءِ الجمَاعات : وصورة من التَّضحيةِ المبرَّأة من الآفات ، المنزَّهةِ عن انتظار المُكَافَاة ، وهَيْكل على الواجب من عِظامٍ أو رُفات ؛ نَقرأُ على صفحاتِه العَجَبَ العاجب تَفْسير الجلالين من موتٍ وواجِب . وتَتنقَّلُ من آيةٍ إلى آية ، وترى كيف جَرَى الإيثارُ للغاية . وكيف سَالتِ النفوس على جنَبات الرَّاية .

ولا يعلمُ إلَّا اللهُ لِمَنِ الجِيفة المحظوظة ، أو تلكَ البقايا المصونَة المحفوظة ؛ أَلِرِعْديد ، أم لِصنديد ؟ ولبطلٍ مَشُوق ، أم لمُكْرَهٍ مَسُوق ؟ ولِشيطان استعمارىّ ، أم هى لِرِبِّى

(١) الغفل : ما لا علامة ولا سمة فيه ، وهو أيضا الشاعر المجهول أو الكتاب الذى لم يسم واضعه . والرمة — جمعها رمم ورمام : العظام البالية ؛ أى إن هذه الجثة المجهولة بين الجثث قد أصبحت عنوان الشهرة ورمز التضحية كما فصل ذلك فى الفقرة التالية .

حَوَارِىّ ؟ ولمَغْمور من سواد الجُند ، أم لمأثور من بيضِ الهند ؟ وهل كانتْ لِبُدَةَ أُسامة ، أم كانت جِلدةَ النَّعامة ؟ وهل هى هيكل المتنبى أم وِعاء أبى دُلامة[1] .

وكيف تعرفُ جثة نكرتها الأيام ، وسارت الأرض فيها سنتها فى الرمام ، إلى أن وقعت عليها يدٌ فى الرجام ، كما تقعُ على النصيب الرابح يدُ الغُلام ، فخرجت بها من غمرة الرِّمم ، وحُفرة الأُمم ، وبؤرة العدم[2]

وإذا هى تنفصل عن سواد الهامدين ، وتتَّصل بالأفراد الخالدين ؛ تَهجُر مغمورات الكفور ، وتعمرُ مشهورات القبور ؛ وبين ذلك جنازةٌ للعصر حولها ضجَّة ، وللأرض تحتها رجَّة ، مواكبُها ملءُ اليبَس واللُّجَّة ، أعلامٌ منكوسة ، وقناً صُمٌّ ، وكتائب خُرْس ، وأنغامٌ محزونة ، ودموعٌ مذروفة وملوكٌ أو رُسُلُ ملوك ، وبَرقٌ يروح ويغدو فى السلوك ، وينعى الزاجليَّة والألوك ؛ فهل شيَّعت نابليون ، أو ولنجتون ، وهل

---

(١) المحظوظة : من حظ : كان ذا حظ . والرعديد : الجبان الكثير الارتعاد . والصنديد : السيد الشجاع . والمغمور : المجهول الخامل النسب ، وغمرة القوم : علوه شرفا . والربى : واحد الربيين ، وهم الجماعة من الناس . والحوارى : ناصر الأنبياء . وأسامة : الأسد ، وهو مضرب المثل فى الشجاعة كما أن النعامة مضربه فى الجبن : أى أن الله وحده يعرف لمن هذه الجثة التى كان لها كل هذا الحظ فى التكريم : أهى جثة رجل كريم عظيم ؟ أم جثة واحد من سواد الناس ؟ .

(٢) الرمام : جمع رمة كما تقدم . والرجام — جمع رجم — : القبر . والغمرة : المزدحم ؛ أى أن الحظ أصابه حين اختاروه من بين الألوف من الجثث ، كما تقدم فى وصف الخفلة التى أقيمت لاختيار الجندى المجهول .

بلَّغت هوجو البانثيون ؛ سوَّى الحظُّ بين هؤلاء ، وبين ذلك النَّكِرة فى الأشلاء ، وأجزل للقَيط الموتى من العطاء ، كما يجزل أحيانا للقطاء[1] .

إسأل العصر : فيم نَبَشَ القُبور ، وقلَّب الهامدين البُور . من أجل هذا الشِّلو المتبور ؛ حتى ألتقطه بيد الحظ الوهوب ، أو يد السيَّارةِ المباركة على ابن يعقوب ؟ (يُجِبْكَ) : أليس كلُّ من شهد النفير العام فهو ذائد الوطن وحاميه ! وكل من وجد فى الحفير الجامع فهو مشتريه بمهجته وفاديه ، مجهول بذل المجهود ، وجاد بالنفسِ وذلك أقصى الجود ، فى موطن سوّى بين القائد والمقود ، والسائد والمسود ، توحَّدت النار وتشابه الوقود ؛ وما حَمَل أعباء الجهاد مثلُ الميْت ، كالأساس دُفن فكان قِوَامَ البيت .

---

(١) ملء اليبس واللجة : أى تسير برا وبحرا . الكتيبة الخرساء : الفرقة من الجند لا يسمع لها صوت لوقار أهلها فى الحرب . والبرق الذى يغدو ويروح فى السلوك : هو الرسائل التلغرافية : والزاجلية : الحمام الزاجل حمام الرسل . والألوك والألوكة : الرسالة . وهذا وصف المواكب التى أشرنا إليها يوم نقل رفات الجندى المجهول إلى قوس النصر . و «نابليون» : بطل فرنسا الكبير وأشهر القواد العسكريين . و «ولنجتون» من مشهورى قواد الانجليز : اكتسب شهرة بعدة بانتصاره على نابوليون فى موقعة واترلو . و « فيكتور هوجو » هو أشهر شعراء فرنسا فى القرن التاسع عشر . والبانثيون : اسم هيكل أقيم فى روما القديمة لتكريم « جميع الالهة » والبانثيون المعنى به هنا : هو الصرح العظيم المشيد فى باريس الذى يضم رفات مشهورى الرجال . والأشلاء : جمع شلو وهى الأعضاء بعد البلى .

كلُّ حيٍّ يموت ، وكل ذخيرة تفوت ، وكلُّ راحلٍ عن قومه وإن وجدهم بالأمس شتَّى فألَّف ، أو نكرات فعرَّف وخلَّف فيهم من فضل ماخلَّف ، لايَسْلَم على الموت من حاسد يزوِّر فى الصحيفة ، أو حاقدٍ يتشفَّى بالجيفة ؛ فيالكِ مُضْغَةً تقرض الكفن الجديد ، وتَسْبِق الدود إلى الصديد ، إلَّا هذا الجندىَّ المجهول : فقد خلت جنازته من الهامس والهامز ، والغامط والغامز ؛ فقل لمن لم يعرفْه الناس : طوبى لك ، ما أنعم بالك ، وما أنقى كفنك وسربالك[1] .

قبرٌ بين «حنيةِ النصر» ، وبِنْيةِ النَّسر . وفوق طريق العصر ، لو كان لعيسى ضريحٌ ، لقلتُ قبر المسيح . كلُّ جريحٍ إليه يَسْتريح ، يقف به المحزون المتهالك ، يقول هذا كُلُّه قبر مالك» ؛ وكأنَّ كلَّ أختٍ حوله الخنساء ، وتحت ذلك الحجر صخر ؛ وكلَّ أمٍ ذات النطاقين أسماء ، وعبدُ اللهِ فى ذلك القبر[2] ؛ دروسٌ عاليةٌ تُلْقَى على الشباب ،

---

(١) أى كل ميت عم فضله لا يخلو من حاسد أو حاقد يعمل على انتقاص قدره ، إلا هذا الجندى المجهول فقد كان بمأمن من الغمز والهمز .

(٢) حنية النصر أو قوس النصر : هو أفخم بناء من نوعه قام فى وسط ميدان من ميادين باريس يتشعب منه اثنا عشر شارعا . وقد أمر ببناء هذا الصرح « نابوليون » الملقب بالنسر ، ولهذا سماه المؤلف : بنية النسر . وكان ذلك فى فبراير سنة ١٨٠٦ ، ولم يتم فتحه إلا فى يوليو سنة ١٨٣٦ . وعلو هذا البناء ٥٠ مترا بعرض ٤٥ مترا وسمك ٢٢ مترا . وهو مزين بأبهى النقوش وأجمل الرموز وقد حفرت عليها أسماء ٥٠

تعلّمهم كيف جعل آباؤهم حمايةَ الغاب ، فوق تفاتر الأَحزاب ، وفتنة الأَسماءِ والأَلقاب ؛ حتى قَرُب تقديسُ الوطن الكريم ، من عبادة العلِيِّ العظيم ؛ وحتى تقرّبوا إلى الأَوطان ، بالذَّبْح المنكر ، كما ذُكِرَ اسم الله على القرْبان ، واسم القربان لم يُذكَر .

والمجدُ أَبعدُ أَسفار الرجال ، وله أَزْوَادٌ وله رحال[1] ؛ جِهادٌ طويل ، وصبرٌ جميل ، وعقباتٌ بكلِّ سبيل ؛ والجندىُّ المجهول ماسار من لَحْدٍ إلى لَحْد ، حتى رَقِيَ أَسوارَ المجد ، ودخلَ مملكةَ الخُلد ، وكان الطريقُ نقيًّا من الشَّوكِ وكلِّه ورْد ؛ ذهبَ رَحِمَهُ الله لا عن ولد يرمينا بجَنادل أَبيه ، ولا أَخٍ يسحبُ علينا أَكفان أَخيه ، وكفانا تَجَنِّيَ الشِّيعَة ، وإدلال الصنيعة ، وكلَّ حِرباءَ يتسلَّقُ الناسَ شجرا إلى الشمس ، يعبدها على مناكِبهم من المهد إلى الرمس .

= مشهورى القواد والمواقع الكبيرة . وذات النطاقين : أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وقصة عبد الله بن الزبير حينما نصحته أمه أسماء بالمضى فى الحرب بعد أن خذله أنصاره وخاف من أن يمثل به الأعداء : معروفة .

(١) الأزواد : جمع زاد . والرحال : جمع رحل ، وهو مركب البعير أو ما تحمله فى سفرك من متاع .

قناة السويس

[كتب المؤلف هذه القطعة بمناسبة اجتيازه قناة السويس فى طريقه إلى الأندلس التى اتخذها محل إقامة له إبّان الحرب . وهى درس جميل بليغ فى تاريخ مصر منذ أقدم العصور . نسج فيها نثرا على المنوال الذى نسج عليه شعرا فى قصيدته الهمزية المشهورة التى قدّمها إلى المؤتمر الشرقى الدولى الذى عقد فى مدينة جنيفا فى سبتمبر سنة ١٨٩٤ . ولئن أشار فيها أكثر من مرة إلى إسماعيل فلأنّ فتح هذه القناة تمّ على عهد ذلك الأمير العظيم بعد تذليل صِعاب كثيرة . وكان افتتاحها فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩م=١٢٨٦هـ وقد دعا الخديو إسماعيل إلى هذا الافتتاح جميعَ ملوك أوربة وألوفا من الأُمراء والسفراء وأقطاب السياسة وحملة الأقلام وأرباب الفنون والصنائع والتجارة حتى ضاقت بهم القصور ، فنصب لهم فى الصحراء ألف سرادق ، وأنزل الإمبراطورة أوجينى «عقيلة الإمبراطور نابوليون الثالث» وسائر الملوك وأمراء الأُسرات الملكية فى قصر منيف شاده خصيصاً لهم . وفى ١٦ نوفمبر أُقيمت حفلة دينيّة اشترك فيها مشايخ الإسلام وأساقفة النصارى وكهنة اليهود . وفى الصباح التالى ابتدأ الاحتفال بإطلاق المدافع ثمّ تقدم يخت الإمبراطورة «أوجينى» فى القناة وتبعه يخت «فرنسوى جوزيف» إمبراطور النمسة ويخت «فردريك غليوم» أمير برسية ، فيَخوت سائر الملوك والأُمراء فالسفن المقلة للمدعوّين والمتفرجين وعددها ٦٨ سفينة . ولما بلغ اليخت الإمبراطورى بحيرة التمساح حيّته ثلاثة

مراكب حربية مصرية بإطلاق المدافع، فجاوبتها مدافع البرّ وعزفت الموسيقى وهتفت الجماهير المحتشدة على الشاطئ من القبائل والأقوام المختلفى الجنسيات . وكان الخديو إسماعيل قد جمعهم فى الإسماعيلية من كل أنحاء مصر والصحراء والسودان ومعهم نساؤهم وأولادهم ونوقهم ومواشيهم وغزلانهم فكان منظرُ تلك الألوف – من بدوٍ وحَضَر ودراويش ومغاربة وسودانيين .. الخ بأزيائهم وألوانهم المختلفة – مشهدا فريدا فى بابه قلما أتيح للعين أن تقع على مثله وفى ١٩ خرجت السُّفن من بحيرة التمساح إلى البحيرات المرّة . وفى اليوم التالى بلغت البحر الأحمر قبيل الظهر بعد أن اجتازت القنال. ومن ذلك العهد فُتِحَت هذه الطريق للمراكب] :

تلكما يا ابْنَىَّ القناة ، لقومكما فيها حياة ، ذكرى إسماعيلَ وريَّاه ، وعُليا مفاخر دُنياه ، دولة الشرق المرَجَّاة ، وسلطانُه الواسعُ الجاه ؛ طريقُ التِّجارة ، والوسيلة والمنارة ، ومَشْرَع الحضارة[1] .

تَعبُرَانِها اليومَ على مُرجاة ، كأنها فُلْكُ النجاة ؛ خرجتْ بنا بين طوفان الحوادث ، وطُغيان الكوارث ؛ تفارق برًّا مغتصبُه مضرى الغضبة ، قد أخذه الأُهْبَة ، واستَجْمَعَ كالأسد

---

(١) ذكرى إسماعيل : راجع ماذكرناه فى التوطئة . والمشرع : المورد .

لِلْوثبة ، وتُلاقى بحرًا جنَّت جواريه ، ونزتْ بالشَّرِّ نوازية ، وتمثَّلتْ بكل سبيلٍ عواديه ؛ مملوءًا ببَغتات الماء ، مترعاً بفُجاءاتِ السماءِ ؛ مِنْ نُونٍ ينسفُ الدَّوارع أو طيرٍ يقذفُ البيضَ مصارع[١] .

فقلت : سيرى عوَّذْتُكِ بوديعة التابوت ، وبصاحِب الحوت ، وبالحيِّ الذى لا يموت ؛ وأَسْرى يا ابنةَ اليم زمامُكِ الرُّوح ، ورُبَّانُكِ نوح ، فكم عليكِ من منكوبٍ ومجروح[٢]

إن للنَّفْسِ لَرَوْعة ، وإن للنَّأْى للَوعة ، وقد جرتْ أحكامُ القضاءِ ، بأَن نَعْبُرَ هذا الماء ؛ حينَ الشرُّ مُضْطَرم ، واليأْسُ محتدمٍ ، والعدوُّ منتقم ، والخصْمُ مُحتكم ، وحينَ الشامتُ جذلان مبتسِم ، يهزأُ بالدمع وإن لم يَنْسَجِمْ . نفانا حكَّامُ عُجْم . أعوان العدوان والظُّلم . خلَّفناهم يفرحون بذهب اللُّجم ، ويمرَحون فى أرسانٍ يُسَمُّونها الحُكم[٣] .

ضربونا بسيفٍ لم يَطْبعوه . ولم يملِكوا أن يرفعوه أو يضعوه ؛

(١) المزجاة : السفينة ، من أزجى الفلك : ساقه وأجراه . ونزت : وثبت . و « طوفان الحوادث وطغيان الكوارث » : يكنى بها عن ويلات الحرب الكبرى . والغضبة المضرية : نسبة إلى مضر بن نزار أبو القبيلة المعروفة باسمه . والجوارى : السفن . والنون : الحوت ، ويقصد به الغواصة . أى إننا نغادر اليوم برا تحكم فيه الغاصب لنلاق بحرا بثت الويلات فى كل جنباته : من غواصات تغرق السفن ، وطيارات تلقى بالقذائف فيكون منها الموت .

(٢) وديعة التابوت : هو موسى . وصاحب الحوت : يونس .

(٣) انسجم الدمع : سال . وكنى بذهب اللجم وأرسان الحكم . عن ذل الحكومة تحت الحماية .

سامَحهُمْ فى حقوق الأفراد ، وسامحوه فى حقوق البلاد ، وماذَنْب السيف إذا لم يَسْتَحْى الجلَّاد[١] .

ماذا تهمسان ؟ كأنى أسمعُكما تقولان : أىُّ شىءٍ بَدَا له ، على هذه الضاحية ؟ وماذا شجا خيالَه ، من هذه الناحية ؟ وأىُّ حُسْنٍ أو طِيب ، لِمِلْحٍ يتصبَّبُ فى كثيب ؟ ماءٌ عَكِر ، فى رملٍ كَدِر ، قناةٌ حمئَة ، كأنها قناةٌ صَدِئة ؛ بل كأنها وعَبْرَيْها رمال ، بعضُها متماسكٌ وبعضها مُنهال ، وكأنّ راكبَ البحر مُصحِر ، وكأنّ صاحبَ البرِّ مُبحِر[٢] .

رويدكما ليسَ الكتابُ بزينة جلدِه ، وليس السيفُ بحليةِ غمدِه ؛ تلك التَّنائف ، من تاريخكم صحائف ؛ وهذه القفار ، كتبٌ منه وأسفار ؛ وهذا المجاز هو حقيقة السِّيادة

---

(١) طبع السيف : عمله وصاغه . والمراد أنهم اتخذوا الحكومة ذريعة فى يدهم لالحاق الأذى بنا . وتركوا هذه الحكومة تفعل ما تشاء بحقوق الأفراد لأنها أباحت لهم حقوق البلاد .

(٢) شجا : حزن . والكثيب : التل من الرمل . والقناة الأولى : الترعة . والثانية : الرمح . وحمئة — من حمىء الماء : أى خالطته الحمأة فكدر . والحمأة والحمأ : الطين الأسود ومنه فى الآية الشريفة (ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون) .
وصدئة — من صدىء الحديد : أى ركبه الطبع والوسخ . وعبر الوادى وعبره : شاطئه وناحيته . قال النابغة فى الفرات * ترمى أواذيه العبرين بالزبد *
وأواذيه : أمواجه . ومصحر : سائر فى الصحراء .
وصف القناة على لسان ولديه كما تبدو للعين ، فهى فى الظاهر لاشىء سوى ماء ملح يسيل بين الرمال ، أو كأنها بمائها العكر وسط علاه الصدأ ملقى على الرمل . ولكن يجب أن لا نأخذ بالظاهر كما بين الكاتب ذلك فى الفقرة التالية التى رد فيها على ولديه .

ووثيقة الشَّقاءِ أو السعادة ؛ خيط الرَّقبة ، من اغْتصبه اختصَّ بالغلَبة . ووقف للأعقاب عَقَبة ؛ ولو سَكتُّ لنطقت العِبَر ، وأين العيان وأين الخبَر ؛ أنظرا تريا على العَبرين عِبرة الأيام : حصونٌ وخيام ، وجنودٌ قعودٌ وقيام ؛ جيشُ غيرُنا فُرسانه وقوَّادُه ، ونحن بُعرانه وعلينا أزواده ؛ ديكٌ على غير جداره ، خلاله الجوُّ فصاح ؛ وكلبٌ فى غير داره ، انفردَ وراءَ الدَّار بالنُّباح[1] .

القناة وما أدراكما ما القناة ؟ حظ البلاد الأغبر ، من التقاءِ الأبيضِ بالأحمر ؛ بَيْد أنها أحلامُ الأول . وأمانى الممالكِ والدُّول . الفراعنة حاولوها ، والبطالسة زاولوها ، والقياصرة تناولوها . والعَرَبُ لأمرٍ مّا تجاهلوها ؛ إلى أن جرى القدَرُ لغايتهِ . وأتى إسماعيل بآيته ، فانفتح البرزخُ بعنايته والْتَقى البحرانِ تحت رايته ، فى جَمْعٍ من التيجان لم يشهدْه

---

(١) التنائف — جمع تنوفة : وهى المفازة ، أو الأرض الواسعة التى لا أنيس بها . والمجاز : المعبر والمسلك ، وهو فى البيان : اللفظ المنقول من معناه الحقيقى إلى معنى يلابسه . وفى قوله : « وهذا المجاز هو حقيقة السيادة » تورية لطيفة . وخيط الرقبة : نخاعها يقال : دافع عن خيط رقبته : أى عن دمه .

رد على ولديه فقال : لا تأخذا بالظواهر ، فما قيمة الكتاب بعلائه ، ولا قيمة الحسام بقرابه ، وهذه القناة الكدرة هى خلاصة تاريخ مصر ، ومن استولى عليها فقد ضمن النصر ؛ لما لموقعها من الخطر . ٥٠ — فى بمن ذكر من الجنود : جيش الأجنبى المحتل .

إكليله ، قد كان يُتوَّجُ فيه لو شهدتْه جيوشُه وأساطيله ؛ وما إسماعيلُ إلا قيصر ، لو أنه وُفِّق ، والإسكندر ، لو لم يُخفِق ؛ تَرَكَ لكم عِزَّ الغد ، وكنزَ الأبد ، والمَنْجمَ الأحد ، والوقفَ الذى إن فات الوالد فلن يفوتَ الولد[١] .

ماذا على هذه الرمال[٢] ، من لَمَحاتِ جلالٍ وجمال ؟ أرجِعا القَهْقرى بالخيال ، إلى العصر الخال ؛ وأعْرِضا فى حداثتِها الأجيال ؛ تريا على هذا المكان وجوهاً تتمثَّل . وركاباً تتنقَّل وتَرَيَا النُّبوّةَ تتهلَّل ، والآياتِ تتنزَّل ، وتَرَيَا المَلَكَ[٣] يترجَّل حتى كأنكما بالزمان الأوّل ؛ فها هنا وُضع للنُّبوّة المهد ، وابتدأ بها العهد . فأقبل صاحبُ المقام ، ومُحطِّمُ الأصنام ، وبنّاءُ

---

(١) التقاء الأبيض والأحمر : أى التقاء البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر بواسطة قناة السويس ، وقد سبق المؤلف فنظم هذا المعنى شعرا فى همزيته المشهورة قال :

جمع الزاخرين كرها فلا كا نا ولا كان ذلك الالتقاء
أحمر عند أبيض للبرايا حصة القطر منها سوداء

البرزخ : قطعة أرض بين بحرين وقيصر : هو يوليوس قيصر الرومانى الذى أحرز مجدا عظيما بانتصاراته وإصلاحاته . والاسكندر : هو إسكندر المقدونى الملقب عند العرب بذى القرنين ، وهو مؤسس مدينة الاسكندرية المنسوبة إليه ويعد من أعظم الفاتحين .

كثيرون حاولوا نقض برزخ السويس من أيام الفراعنة — ولو كان فتح القناة لم يتم إلا على عهد إسماعيل فى جمع من التيجان كما مر بك وصف الاحتفال فى المقدمة .

(٢) أخذ المؤلف يروى لواديه تاريخ تلك البقاع ، وهو درس تاريخى جميل بلغ جمع إلى سرد الوقائع والحوادث شيئا كثيرا من فلسفة التاريخ وعبر الأيام .

(٣) الملك : الملائكة .

البيت الحرام ، خليلُ ذى الجلال والإكرام . هاجر إلى مصر أكرمَ مَنْ هاجرَ ، ثم انقلبَ منها بأمِّ العرب « هاجَر » .

ومن هذه الثنيَّات طلعَ يوسفُ يرسُفُ فى القيد ، وهو للسيارة[1] يسير من كَيْدٍ إلى كَيْد ؛ قلبٌ جرحَتْه الإخْوَة ، وجنبٌ قرَّحتْه النِّسوة ؛ فيالكَ يوسفُ من أسوة ؛ عِزٌّ بعدَ هُون ، ودولةٌ بعد المنزل الدُّون ، وشئونُ أقدارٍ وشجون ، وسهولُ حياةٍ وحزون ، وسجوفُ القصور بعد السجون ؛ إلى سجود الشَّمسِ لك والقمر ، والكواكب الأُخَر .

وإلى هذا الفضاء خرج موسى حين زِيلَ زَويلُه[2] وطلبَهُ قتيلُه ، وزين له الفِرَارَ خليلُه ؛ فحوته هذه الرِّمَال فإذا الأَمنُ سبيلُه . واليُمْن دليلُه ، والسلامة زاملته[3] والسِّلمُ زميلُه ؛ ولو أطلعه الله على غيبِه ، للمَس النبوّة بين يدِه وجَيْبه ، إلى أن رُفِع له المنار ، واكتحلَ بالنور واقتبَسَ من النَّار ، وقيل له كن من الأحرار الأحبار ، وارجِعْ فسلِّط الحقَّ

---

(١) السيارة : القافلة .

(٢) زيل زويله : أى زال جانبه ذعرا وفرقا .

(٣) زاملته : رافقته . وأصل « زامله » عادله على البعير فى الحمل : أى كان هو فى جانب وصاحبه فى آخر .

على فرعون الجبَّار ، فكان عليه السلام أولَ من اقتحم على الفردِ جبروتَه ، وهتكَ على المستبدِّ طاغوتَهُ ، وخَطَمَ[1] المتألِّهَ وحطمَ عظموتَهُ ؛ ماءَ الحقّ على لُطفه ، ظَفِر بنار الباطل على عنفه ؛ ظهر العدلُ على الحيْف . وكسرت العصا السيف .

وعلى هذه الأَرض مشت السماءُ الطَّاهرة ، والتيِّرة الزاهرة ، والآية المتظاهرة ؛ أُمُّ الكلمة[2] ، وطريدة الظُّلَمة؛ سرحوا فى عِرْضها فأَخرجوها من أرضها ، فضربَتْ فى طول الأَرض وعَرْضها ؛ يوسف حاديها ، وجبريلُ هاديها ، والقُدْسُ ناديها . والطَّهارة أَرجاءُ واديها ؛ وعلى ذراعها مصباحُ الحكمة ، وجناحُ الرحمة ، والإصباحُ من الظُّلمة ؛ حتى هبطتْ به أَكرمَ الأديم ، فنشأَ بين الحكيم والعليم . وترعرع حيثُ ترعرع بالأمس الكليم .

فيالك من دار ، لَعِبَتْ على عَرَصاتِها الأقدار ، ناويت موسى ، القريب ؛ وآويْت عيسى ، الغريب . نَبَوْت بالنَّبىّ وحبَوت الأَمنَ عيسى وهو صبىّ ، عُذرُك لاتُنْضَى إليه المَطى فإنما غَضبْتِ لابنِك القبطىّ[3] .

---

(١) خطمه : ضربه على أنفه .

(٢) السيدة مريم .

(٣) إشارة إلى القبطى الذى قتله موسى وغضبت له مصر فلم تقبل فيه من عذر

ثم أنظُرَا تريا إبلًا صِعابا ، وخيلًا عِرَابا[١] ، وتريا الرُّعاةَ[٢] نقضُّوا على الوادى ذئابا ، فأخافوا القرى الآمنة ، وأخرجوا من مصر الفراعِنة . واستبدّوا بالمُلْك فيها آونة .

وتريا الوحوشَ الضاريَة ، والجوارحَ الكاسرة ، يقودُها شر الأكاسرة[٣] ، مَلأَتْ هذه الفِجاج[٤] ، وكأنها حَرَجاتُ[٥] السَّاج ، أو حركاتُ الأمواج ؛ ثم تدفَّقتْ تكتَسحُ الديار ، باغيةَ السَّيف طاغيةَ النَّار ، تَدكُّ الهياكلَ والمعاقل ، وتهتكُ العقائدَ والعقائل .

وتريا الإسكندرَ الكريم ، قد لَمَعَ كالصارم من هذا الصريم[٦] ؛ يحملُ الحملات النجائب . ويفتحُ بالكُتْب وبالكتائب .

وتريا ابنَ العاص والصحابة ، مَرُّوا من هذه الأرجاء مَرَّ السحابة ؛ يفتحونَ للحقّ ، ويفتكونَ بالرِّقّ ؛ حتى أخْلَوْا

---

(١) العراب : الكرائم .

(٢) الهكسوس أو الملوك الرعاة .

(٣) هو تمبيز أحد ملوك الفرس حكم من ٥٢٩ إلى ٥٢٢ قبل المسيح ، وهو ابن خورش : فتح مصر واستبد بأهلها ، وقد ذكره المؤلف فى قصيدته المؤثرة فقال :

لا رعاك التاريخ يايوم قمبيز ولا طنطنت بك الأنباء
دارت الدائرات فيك ونالت هذه الأمة اليد العسراء

(٤) مفردها فج : وهو الطريق الواسع بين جبلين .

(٥) حرجات — جمع حرجة : وهى مجتمع الشجر . والساج : شجر يعظم جدا وخشبه أسود .

(٦) الصارم : السيف القاطع . والصريم : الرمل .

القصور من القياصرَة ، وأراحوا مصرَ الصَّابرة ، من صَلَف الجبابرة .

وتريا صلاحَ الدِّين يَخْفى كالبدر ويبدو ، ويروحُ كالغيث ويغْدو ؛ بُعوثٌ بلا عدد ، ومَدَدٌ إثرَ مَدَد ، وذخائرُ وعُدَد ، وبشرى كلَّ يومٍ بفُتوحٍ جُدُد .

وتَرَيَا « نابليون » قدركبَ طيشَه ، وأركبَ الغَرَرَ[1] جيشَه .

وتَرَيَا إبراهيمَ بنَ عليٍّ مشهورَ الجُراز[2] ، موفورَ الجِهاز ، مَلَكَ سوريا وضَبَط الحِجاز .

وتريا إسماعيلَ بعثَ الحاشرين ، وحشدَ الحافرين ، وقَرَّبَ المسافة للمسافرين ؛ غيَّرَ وجْهَ السفر ، فقيل : بلغَ غايةَ الظَّفر ، وقيل : وقع الحافرُ فيما حَفَر .

ثم أنظرَا اليوم تريَا القناة فى يد القَوْم إن أمنوا ركَّزوها[3] ، وإن خافوا هَزُّوها .

---

(١) الخطر

(٢) السيف

(٣) ركز الرمح : غرسه فى الأرض ، وفى القناة هنا تورية ، إذ تحتمل معنى الرمح وقناة السويس .

الذكرى

[هذه قصيدة من الشعر المنثور تغزل فيها المؤلف بالحرية وأهداها إلى روح صديقه المرحوم مصطفى كامل باشا بمناسبة ذكرى وفاته] :

قلْ لا أعرِف الرِّقّ ، وتقيَّد بالواجب وتقيَّد بالحقّ ؛ الحرية وما هِيَه ؟ «الحُمَيراء»[١] الغالية ، فتنة القرون الخالية ، وطَلِبة النفوس العالية ؛ غِذاءُ الطبائع ، ومادّة الشرائع ، وأُمُّ الوسائل والذَّرائع ؛ بنتُ العلم إذا عمّ ، والخلق إذا تمّ ، وربيبة الصبر الجميل والعمل الجمّ ؛ الجهلُ يئدُها[٢] ، والصغائرُ تُفسدُها ، والفُرْقة تُبعدُها ؛ تكبيرة الوجود ، فى أُذُن المولود ؛ وتحية الدُّنيا له إذا وصل ، وصيْحة الحياة به إذا نَصلَ[٣] ؛ هاتِفٌ منَ السماءِ يقولُ له : يا ابنَ آدمَ ؛ حَسْبُكَ من الأسماءِ عبدُ الله وسيّدُ العالم[٤] ، وهى القابلة التى

---

(١) الحميراء : يريد أنها حمراء كالدم ، وصغرها للتعظيم . وقد تكون إشارة إلى الروح التى يعبرون عنها بسريان الدم فى الجسم .

(٢) يئدها : أى يدفنها حية

(٣) نصل : السهم خرج نصله والمراد خروج الولد من بطن أمه كخروج السيف من غمده .

(٤) عبد الله : معناه أن الانسان وهو فى الدنيا لا يكون عبدا إلا لله ، وهو سيد العالم المنتفع بكل شىء فيه .

تستقبله ، ثم تسرّه[١] وتُسَرْبِلُه[٢] ، وهى المهدُ والتميمَة[٣] ، والمُرضعُ الكريمة ، المنجبة كـ «حليمة»[٤] . ألبانها حياة ، وأحضانها جنَّات . وأنفاسُها طيِّبات . العزيزُ من وُلدَ بين سَحْرِها[٥] ونَحْرها[٦] ، وتعلق بصدرها ، ولعِبَ على كتِفها وحجرها ، وترعرعَ بين خِدرها وسِترها . ضجيعةُ موسى فى التابوت[٧] ، وَجاوَرَتْه فى دار الطاغوت[٨] ،

---

(١) تسره : تقطع سره . والسر : ماتقطعه القابلة من سرة الصبى ، ولا تقل : سرته ؛ لأن السرة لا تقطع ، وإنما هى الموضع الذى قطع منه السر .

(٢) تسربله : تلبسه السربال وهو القميص .

(٣) التميمة : عوذة تعلق على الانسان .

(٤) حليمة هى مرضع رسول الله ، وهى من قبيلة بنى سعد

(٥) السحر : الرئة ، والمراد مافوقها .

(٦) النحر : موضع القلادة من الصدر .

(٧) ضجيعة موسى فى التابوت : حكاية التابوت أن المنجمين أخبروا فرعون مصر أن مولودا من بنى إسرائيل قد أظله زمانه الذى يولد فيه يسلبه ملكه ويخرجه من أرضه ويبدل دينه ، فأمر بقتل كل مولود يولد من بنى إسرائيل من الغلمان .

ولما قيل له : أفنيت الناس وقطعت النسل وهم خبالك وعمالك ؛ أمرأن يقتل الغلمان عاما ويستحيوا عاما فولد هارون فى السنة التى يستحيا فيها الغلمان ، وولد موسى فى السنة التى فيها يقتلون ، فحزنت أمه ، فأوحى الله إليها : أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم — وهو النيل — ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فلما وضعته أرضعته ثم دعت نجارا فجعل له تابوتا وجعلته فيه وألقته فى اليم ، فأقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين أشجار عند بيت فرعون ، فخرج جوارى اسية امرأته يغتسلن فوجدن التابوت فأدخلنه إلى اسية ، فأحبته وحالت بينه وبين الذبح ، فلما بلغ أشده وأصبح فى المدينة خائفا يترقب قال =

والعصا[١] التى توكأ عليها ، والنّارُ التى عَشَا إليها[٢] . جبلّة المسيح ، السيِّد السميح ، وإنجيله ، الذى حاربهُ جيله[٣] ، وسَبيله ، الذى جانَبَهُ قَبيله ، طِينةُ[٤] محمدٍ عن نفسه ، عن قومِه ، عن أمسه ، عن يومه ، أنسابٌ عالية ، وأحسابٌ زاكية ، ومملوكٌ بادية ، لم يَدنهم طاغية ، وهى رُوحُ ديانه ، ومُنحدَر السُّوَر على لسانه ، الحرِّية ، عقدُ الملك ، وعهدُ المَلْك ، وسُكان الفُلْك ، يدُ القلم ، على الأُمم ، ومِنحة الفكر ، ونفحة الشعر وقصيدة الدهر ، لا يُستَعْظَمُ فيها قرْبان ، ولو كان الخليفة عثمان بن عفان ، جنينٌ يحمَلُ به فى أيام المحْنَة ، وتحتَ أَفياءِ[٥] الفتنة ، وحينَ البغى سيرة

= رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال : عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . ثم كانت رسالته ، فالحرية التى اضطجعت مع موسى فى التابوت وجاورته فى دار الطاغوت ، هى التى اعتمد عليها فى إنقاذ قومه من ظلم فرعون .

(٨) الطاغوت : الكفر .

(١) العصا : هى عصا موسى ، وهى معجزته التى كانت إذا ألقاها انقلبت حية تسعى ، وأراد أن يثبت لفرعون مصر أنه مرسل من عند الله لتحرير أمته بنى إسرائيل من الرق والعبودية . فعصا موسى . هى عصا الحرية ، لأن الله حرر أمته على يده .

(٢) عشاها : قصدها ليلا يوم سار بأهله ، فانسى من جانب الطور نارا ، فكانت رسالته بذلك الوادى المقدس إلى فرعون لينقذ بنى إسرائيل من رق الفراعنة إلى بحبوحة الحرية .

(٣) جيله : قومه ، وقد أبوا أن يتبعوه إلا قليلا منهم وهم الحواريون .

(٤) طينة محمد عن نفسه . . الخ ، أى أن محمدا خلق من الحرية وقبل أن يخلق كان سارحا فى فضائها ، ولما بعث محمد دعا الناس جميعا إلى الحرية .

(٥) الأنباء : هى الطلال .

السَّامَّة[١] ، والعدوان وتيرة العامَّة ، وعندَ تناهى غفلة السواد ، وتفاقم عبَث القوَّاد ، وبين الدَّم المطلول ، والسيف المسلول ، والنظم المحلول ، وكذلكَ كَان الرُّسلُ يولدون عندَ عموم الجهالة ، ويُبعثون حين طمُوم الضلالة ؛ فإذا كَمُلَتْ مدَّتُه . وطلعَتْ غُرَّتهُ ، وسطعَتْ أَسِرَّتُه وصحَّتْ فى المهد إمرتُه ، بدّلت الحال غيرَ الحال ، وجاءَ رجالٌ بدَ الرِّجَال ؛ دينٌ ينفسحُ للصادق والمنافق ، وسوقٌ يتسع للكاسد والنَّافق[٢] ، مولودٌ حمْلُهُ قرُون ، ووضعُهُ مِئُون وحَداثته أَشغالٌ وشئون ، وأَهوالٌ وشجون ، فرحمَ الله كلَّ من وطَّأَ ومهَّد ، وهيَّأَ وتعهَّد ، ثم ٱستشهدَ قبلَ أَن يشهد .

إذا أَحرزت الأُممُ الحرِّيَّة أَتت السيادةُ من نفسها ، وسعت الإمارةُ على رأسها ، وبُنِيَت الحضارة من أُسِّها ؛ فهى الآمرُ الوازع ، القليلُ المُنازِع ، النبيلُ المشارب والمَنَازع ؛ الذى لايتخذ شِيعة ، ولاصنيعة ، ولايَزْدهى بخديعة ؛ خازنٌ ساهر ، وحاسبٌ ماهر ؛ دانقُ الجماعة بذمةٍ منهُ وأَمان ، ودِرْهَمُهُم فى حِرْزِهِ دِرْهَمَان .

---

(١) السامة . الخاصة .

(٢) النافق : الرائج .

« فياليلى[1] » ماذا مِن أترَاب ، وارَيْتِ التراب ؟ وأخدان أسدت للديدان ؟ عُمَّالٌ للحق عُمَّار ، كانوا النُسوسَ والأقمار ، فأصبحوا على أفواه الرُكَّاب والسُمَّار ؛ وأين قيسُك المعول ؟ ومجنونك الأوَّل ؟ حاشا ! الحقّ الأطوَل ، وفارسُ الحقيقة الأجوَل ؛ أينَ مصطفى ؟ زينُ الشباب ، ورَيْحان الأحباب . وأوَّلُ من دفَع الباب ، وأبرزَ النَّاب ، وزأرَ دون الغاب ؟ . . .

---

(١) يناجي الحرية باسم ليلى ، ويسألها عن « قيسها » و « مجنونها » .

الشمس

سَلِ الشَّمْسَ مَنْ رَفَعها نارًا ، ونصبَهَا[١] منارًا ، وضَرَبها دينارًا[٢] ومَنْ عَلَّقها فى الجوِّ ساعة[٣] ، يَدِبُّ عقرباها إلى يوم الساعة[٤] ؟ ومَن ذا الذى آتاها مِعْراجَها[٥] ، وهداها أَدْراجَها[٦] ، وأَحلَّها أَبراجَها ، ونقَّلَ فى سماءِ الدنيا سراجَها؟ ومَن الذى وكَّلَها بهذه الكُرة ، وشغَلَهَا بهذه الدَّسْكَرَة[٧] ، حتى اتَّخَذَتْها مَجَرَّ ذيلها[٨] وتصرفَتْ بنهارها وليلها ؛ تَنْهَضُ فى السماء مُسْتَمْلَحَة ، وتمشى على الأَرض مُصلحَة ، وتغدو منْجحَة[٩] ، وتروح مُرْجحَة[١٠] ؛ كلُّ إياة[١١] ، حياة أو ائتناف[١٢] ، حياة ، وكلُّ شُعاع صانع صَنَاع ، وكلُّ رائد

---

(١) نصبها : أقامها .
(٢) أى كالدينار صفرة واستدارة .
(٣) أى كالساعة التى يعرف بها الوقت .
(٤) عقربا الشمس : هما الليل والنهار تشبيها لهما بعقربى الساعة .
(٥) المعراج : السلم .
(٦) جمع درج : وهو الطريق .
(٧) الدسكرة : القرية العظيمة والمراد بها هنا : الدنيا .
(٨) المراد بالذيل : الأشعة ، أى أنها اتخذت الدنيا مكانا تجر عليه أشعتها .
(٩) غدو الشمس : إشراقها .
(١٠) الرواح : الغروب . ومرجحة : أى تجزل العطاء .
(١١) الاياة ، والشعاع ، الرائد : كلها بمعنى واحد .
(١٢) ائتناف : أى تجديد .

مالٌ فائد[١] ، وخيرٌ رائد ؛ هيَ المصباحُ الأَنْوَر ، والمِغْزَل الأَدْوَر[٢] ، والمِرْجَلُ الأَزْهَر[٣] ، والصَّباغُ الأَمْهَر[٤] ، والرَّاوُوق[٥] الأَظْهَر ، والطبيب الأَقْدَر الأَشْهَر .

الزمانُ هى سببُ حصوله[٦] ، ومُنْشَعِبُ[٧] فروعه وأصولِه ، وكتابُه بأَجزائه وفصولِه ؛ ولِدَ على ظهرها ، ولَعِبَ على حِجْرِها وشاب فى طاعتها وبِرِّها ؛ لولاها ما اتَّسَقَتْ[٨] أيامُه ، ولا انتظمتْ شهورُه ، وأعوامه ، ولا اختلف نورُه وظلامُه ؛ذَهَبُ الأَصيلِ مِن مناجمها[٩] ، والشفقُ يسيلُ مِنْ محاجمها[١٠] ؛ تحطَّمَت القرونُ على قرْنِها[١١] ، ولم يَعْلُ تطاولُ السنينَ

---

(١) المال الفائد : الثابت على الزيادة والربح .

(٢) الأدور : شديد الدوران ، وتشبيه الشمس بالمغزل لأنها تغزل الأشعة وترسلها بسرعة .

(٣) المرجل : القدر . والأزهر : النير المشرق ، وشبه الشمس بالمرجل بجامع الانضاج فى كل .

(٤) تصبغ النبات فتجعله أخضر ، وتحبو الحيوان ألوانه المختلفة ، ثم تعطى بأشعتها كل شىء لونا .

(٥) الراووق : المصفاة ، والغرض أنها مطهرة .

(٦) الليل والنهار والفصول الأربعة : هى مظهر الزمان ، ولولا الشمس ما كانت ولا كان الزمان .

(٧) المشعب : المفترق .

(٨) اتسقت : أى انتظمت .

(٩) المنجم : المعدن ، والمؤلف يشبه الأصيل بالذهب بجامع الصفرة فى كل .

(١٠) المحجم : مكان الحجامة ، وهى أخذ الدم من الجسم ، والمؤلف يشبه الشفق بالنسبة إلى الشمس بالدم بالنسبة إلى شخص يحتجم بجامع الحمرة فى كل .

(١١) قرن الشمس : أعلاها ، وقيل : أول ما يبدو من أشعتها .

بِسنِّها[١] ، ولم يمحُ التقادم[٢] لمحةَ حسنِها ؛ أَتَتْ دُونَها الأيا
وهى كَعاب[٣] ، فى غرْب الشباب[٤] ، تصبِحُ تَبْرزُ من
حجاب ، وتُمسى تتوارى بحجاب ؛ طالما ردَّتْ الغِربا
حمائم[٥] ونَسَجتْ الثلاث العمائم[٦] ، وغزلتْ الأكفان ؛
الحىِّ فَانٍ ، وطلعتْ على عَزَبٍ[٧] وغربَتْ على بانٍ[٨] ،
قامتْ على غير قَدَم ، حتى طال عليها القدَم ؛ وقيل :
ما لهذه عدَم ، كلا لتَخرَّنَّ عمادا[٩] ، ولتَذْهبنَّ رَمَادا ، وليبعَثَنَّ
الله جَمادا[١٠] .

---

(١) السن : العمر ، والمعنى أن طول الزمن لم يؤثر فيها شيئا .
(٢) التقادم : القدم .
(٣) كعبت الجارية : نهد ثديها ، فهى كعاب .
(٤) غرب الشباب : حدته ونشاطه .
(٥) أى تحليل الشباب شيبا .
(٦) العمائم الثلاث : كناية عن شعر الشباب الأسود واختلاط السواد بالبياض فى الأشمط والبياض فى الشيوخ .
(٧) العزب : الذى لم يتزوج .
(٨) البانى : المتزوج .
(٩) لتسقطن .
(١٠) أى يبعث على أثرها من العظام أحياء . ويشير بهذا إلى أن الشمس تبقى ولا تفنى إلا قبيل الساعة ، حتى إذا ما فنيت نشرت الخلائق بعد ذلك ، و (نفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض) .

الموت

راكبَ الأعوادِ[١] إلى أيْن ؟ يا بُعْدَ غاية البَيْن[٢] ، ويا قُرْب الميلادِ من الحَيْن[٣] ؛ وَيْحَ قَومِك ! هل انتبهوا مِنْ نومِك[٤] ، ولمسوا عِبْرَةَ الدهرِ بيومِك[٥] ؟ حَمَلُوكَ على حَدْباء[٦] ، يقعُد الأبناءُ منها مَقْعَدَ الآباء ، هى أعدلُ — إذْ تَضَعُ[٧] — من حَوَّاء تُلْقِى حَمْلَها فإذا الملَكُ والسُّوقَةُ سواء ؛ حقيبةُ المنيَّة[٨] كلَّ يومٍ فى ركاب ، مِن مناكبَ[٩] ورقاب ، نحمِل الشَّيبَ والشباب ، إلى رَحَى البِلى فى اليباب[١٠] ، فيدورُ عليهم الدُّولاب[١١] فإذا هم حَصًى وتُرَاب ؛ ومن عَجب يعدلونَها بك إلى السَّبيل[١٢] ، وما هى لعَمْرُ أبيك إلا الدَّليل ، فى موكِبٍ غيرِ

---

(١) الأعواد : كناية عن النعش ، والخطاب للميت .
(٢) البين : الفراق ، وهذه الجملة إشارة إلى بعد الزمن ما بين الموت والنشور .
(٣) الحين : الموت ، وهنا إشارة إلى قصر الحياة .
(٤) أى هل اتعظوا به .
(٥) العبرة : العظة . ويومك : أى يوم موتك .
(٦) نعش .
(٧) أى تلد ، والمراد إذ تسلم الأموات إلى القبور .
(٨) كناية عن النعش .
(٩) المناكب : الأكتاف .
(١٠) اليباب : القفر والخراب . والمراد برحى البلى هنا : القبر ، إذ فيه يتم الفناء
(١١) الدولاب : الآلة الدائرة ، والمراد بها هنا : دولاب الفناء .
(١٢) يسيرونها كيفما شاءوا ، مع أنها هى التى تقودهم إلى طريق الحق .

الموت

راكبَ الأعوادِ[١] إلى أيْن ؟ يا بُعْدَ غاية البَيْن[٢] ، ويا قُرْب الميلادِ من الحَيْن[٣] ؛ وَيْحَ قومِك ! هل انتبهوا مِنْ نومِك[٤] ، ولمسوا عِبْرَةَ الدهرِ بيومِك[٥] ؟ حَمَلُوكَ على حَدْباء[٦] ، يقعُد الأبناءُ منها مَقْعَدَ الآباء ، هى أعدلُ — إذْ تَضَعُ[٧] — من حَوَّاء تُلْقِى حَمْلَها فإذا الملَكُ والسُّوقَةُ سواء ؛ حقيبةُ المنيَّة[٨] كلَّ يومٍ فى ركاب ، مِن مناكبَ[٩] ورقاب ، نحمِل الشَّيبَ والشباب ، إلى رَحَى البِلى فى اليباب[١٠] ، فيدورُ عليهم الدُّولاب[١١] فإذا هم حَصًى وتُرَاب ؛ ومن عَجب يعدلونَها بك إلى السَّبيل[١٢] ، وما هى لعَمْرُ أبيك إلا الدَّليل ، فى موكِبٍ غيرِ

---

(١) الأعواد : كناية عن النعش ، والخطاب للميت .
(٢) البين : الفراق ، وهذه الجملة إشارة إلى بعد الزمن ما بين الموت والنشور .
(٣) الحين : الموت ، وهنا إشارة إلى قصر الحياة .
(٤) أى هل اتعظوا به .
(٥) العبرة : العظة . ويومك : أى يوم موتك .
(٦) نعش .
(٧) أى تلد ، والمراد إذ تسلم الأموات إلى القبور .
(٨) كناية عن النعش .
(٩) المناكب : الأكتاف .
(١٠) اليباب : القفر والخراب . والمراد برحى البلى هنا : القبر ، إذ فيه يتم الفناء
(١١) الدولاب : الآلة الدائرة ، والمراد بها هنا : دولاب الفناء .
(١٢) يسيرونها كيفما شاءوا ، مع أنها هى التى تقودهم إلى طريق الحق .

ذى صوت ، أَضْفى[١] عليه جلالَهُ الموت ؛ أنت فيه جِدٌ فى لَعِب ، وصِدقٌ فى كذب[٢] ؛ لكَ فيه عُلُوُّ المتبوعِ فى التَّبَع[٣] ، واللواءُ فى الخميس[٤] والخطيب فى الْجُمع ، بَيْدَ أن ذلك لا يمنَعُك من الأَرض[٥] ، ولا يَنْفَعُك يومَ العَرْض[٦] ، لستَ والله صاحِبَ الآخرة[٧] ، وإن كنتَ صاحبَ الجِنازة الفاخرة حتى تُشَيَّعَ بيتيمٍ بعدك مُضَيَّع ، أو بائسٍ من ورائك يائس ، أو وطن يبكيكَ عقلاؤه ، ويضجُّ عليك فضلاؤه ، ويمشى بنورك أبناؤه ، ويُضيءُ حُفْرَتَكَ ثناؤه ، انظر — رحمك اللهُ — هل ترى غيْرَ باكٍ كضاحِك المزْن[٨] ، ليس وراءَ دمْعه حُزْن ؟ أو وارثٍ مشغولٍ بما مَلك ، أو فضولىٍّ يسأَلُ كم تَرك ؟ زُخْرُفُ

---

(١) أضفى : أفاض .

(٢) الآخرة جد والدنيا لعب ، وهى صدق والدنيا كذب . فهو بينهم مبت فى وسط أحياء ، فوصفه بأوصاف الآخرة كما وصفهم بأوصاف الدنيا .

(٣) التابعين .

(٤) اللواء : العلم . والخميس : الجيش .

(٥) الأرض : القبر .

(٦) القيامة .

(٧) أى صاحب الجزاء الحسن فيها . والمراد بهذه الجملة وما يليها : أنك لن تنال ما ترجوه من نعيم الله حتى تشهد لك دموع اليتامى من بعدك ، وبكاء البائسين على قبرك ، وعبرات الفضلاء يوم مصرعك ، وأحزان الوطن لفراقك .

(٨) المزن : السحاب الغزير الماء . والغرض أنك لا تجد حولك إلا دمعا كذبا وحزنا كله رياء .

جنازة ، وينفضُّ دونَ المفازة[١] ، وضجَّةُ الخروج من الدُّنيا وزورها ، وآخر عَهْدِكَ بباطلِ الحياة وغرورها ، ولو أَطْلَلْتَ على فانٍ طالما حَمَلَتْ[٢] ، وباطلٍ بالأمس شَغَلَك ، وقليلِ متاعٍ قَتَلك ، ثم لَمْ يبق لك : لم تر غير حُلْمٍ بُتر[٣] ، ومَلْعَبٍ سُتِر ، وماءٍ عُبِر[٤] ، وظِلٍّ هُجِر ، ومالٍ خُسر ، ووارثٍ مُنْشَمِر[٥] ؛ يسيرون بك إلى المُنْفَرَق[٦] وسواءِ الطُّرُق ؛ ويأْخذون بك ناحيةَ الحقِّ ، وسبيلَ الخَلْق ، وقصبَةَ السَّبْق ، هُوَّةُ البِلى ، وغَمْرَةُ الفَلا[٧] ؛ والميعاد ، ومدينةُ عاد ، وعَرَصَاتُ المَعاد[٨] ، والبلَدُ الذى ابْيَضَّت فيه الأَكباد[٩] ، وخُلِّفَتْ بظاهره الأَحقاد ، وصحَا الفؤاد ، عن الأَموال والأَولاد ؛ كلُّ مكانٍ فيه مَضْجَع ،

---

(١) المفازة : الفلاة المهلكة لعدم وجود الماء ، والمراد بها هنا : موضع المقابر . يقول : كل ماخرجت به من الدنيا سوكب سزين ينفض قبل أن يواروك التراب .

(٢) جواب « لو » قوله « لم تر غير حلم بتر » .

(٣) قطع .

(٤) عبر الماء : قطع من شاطئه إلى شاطئه .

(٥) انشمر : سرجادا أو مختالا .

(٦) مكان الفصل بين الدنيا والآخرة ، والمراد بهذا وما بعده : أوصاف للمقابر عامة ، أما وصف القبر خاصة فسيأتيك بعد قليل .

(٧) الفلا : الأرض الفضاء الموحشة . والغمرة : المزدحم ، والمراد أن المقابر هوة يكون فيها الفناء وأرض يزدحم فيها الأموات .

(٨) العرصات : الفضاء بين الدور . والمعاد : موضع العود والنشور .

(٩) سواد الكبد : كناية عن الحقد والحسد ، وبياضه : طهره من كل هذه الأرجاس .

وكلُّ زمان فيه رُقاد[١] ، ثم إذا أنتَ ببيتٍ[٢] ، لاينزلُه إلا مَيْت ؛ اختطَّهُ الباطلُ وبناه ، لنزول الحقّ وسُكناه[٣] ؛ كل حجَرٍ فيه من جدار ، مشاعٌ[٤] بين الدَّار والدَّار ؛ حتى إذا أطرق[٥] الجَمْع ، وأُطْلق الدَّمْع ، وَفرِق البصرُ والسَّمْع[٦] ؛ قُذِف مافى السَّرير[٧] ، فتلقَّفَهُ الحَفير[٨] ، ووُكلْتَ لِمُنْكَرٍ ونكير ، لا بل لرحمة المَلِك القدير .

فياعَبْدَ المال ، أَضَرَّكَ أَنَّك عُتِقْت[٩] ؟ ويا أَسيرَ الآمال ، أَما سَرَّكَ أَنكَ أُطْلقْت[١٠] ؟ ويا كثيرَ التحوُّل والتقلُّب ، قَلِّبْ إن استَطَعْتَ جَنْبَيْك ؛ ويا مُديمَ التَّطَلُّع والتَّطَلُّب ، اطلب من البِلى نورَ عينيك ؛ ويا مُزَحْزح الصمّ[١١] الصِّلاب زحْزحْ عن رأْسِكَ هذه الظُّلمة ؛ ويافاتحَ المغالق الصِّعاب ،

---

(١) يقضى الميت مدته فيه كلها فى رقاد طويل .

(٢) القبر .

(٣) الانسان الموجود فى الدنيا دار الباطل والغرور يحفر القبر ليسكنه الميت الذاهب إلى دار الحق والرشاد .

(٤) مشاع : مشترك .

(٥) أطرق برأسه : أماله إلى الارض حياء .

(٦) فرق : فزع وخاف .

(٧) السرير : النعش .

(٨) الحفير : القبر .

(٩) الاستفهام هنا إنكارى .

(١٠) الاستفهام هنا تقريرى يقرر ما بعده .

(١١) الصم : الحجارة الصلبة .

افتَحْ لَكَ اليومَ ثُلْمَة[١] . كأنى والله بالدَّهر وقد خلا ، وبالمحزون وقَدْ سَلا[٢] ، وكأنى بِكَ وقد فرَغ مِنكَ الشَّرى وقامتْ عنكَ الرَّحى[٣] فإذا أنت عِظامٌ ، كما اختُرِطَ العُنْقُود[٤] ؛ ثم إذا أنت رَغامٌ[٥] ، جَفَّ الماءُ وذَهبَ العود .

---

(١) ثلمة فتحة ، وكل ماتقدم الغرض منه إظهار نهاية عجز الانسان بعد الموت ، وكأنما يقول (وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) .

(٢) سلا : أى تعزى وترك .

(٣) أى لم يبق منك ما يصلح للطحن كناية عن تمام الفناء .

(٤) اختطر الرجل العنقود : وضعه فى فيه وأخرج عوده عاريا .

(٥) الرغام : التراب .

دعاء الصلاة الغائبة

[فى سنة ١٩١٩ هبت البلاد فى ثورة عامة تطالب استقلالها المغصوب ، وأوفدت لذلك وفدًا ليرفع هذا الصوت فى مؤتمر « فرساى » ، فأُوصد الباب فى وجهه . واضطر إلى أن يلبث فى فرنسا سنة كاملة بين تعب ناصب ، وجهاد طويل ؛ ثم تلقى دعوة إلى المفاوضة مع الإنكليز فى عاصمة بلادهم ؛ يومئذ وضع المؤلف هذا الدعاء البليغ ، فأجمع الناس من كل دين على أن يتوسلوا إلى الله أن يُعزَّ به نوّاب البلاد . وعقب صلاة الجمعة من يوم ١٧ رمضان سنة ١٣٣٨ – ٤ يونيو سنة ١٩٢٠ – ارتفعت أصوات المسلمين من كل مسجد فى كل بلد من بلاد القطر تهتف بهذا الدعاء الحارّ ، وملء القلوب أمل ، وملء الأنفاس توسل ورجاء] :

اللهمّ قاهرَ القياصر ، ومُذلَّ الجبابر ، وناصرَ مَن لا له ناصر ؛ ركنَ الضعيف ومادَّةَ قُواه ، ومُلهِمَ القويّ خَشْيَتَهُ وتَقْواه ، ومَنْ لا يحكم بين عِباده سواه ؛ هذه كِنانَتُك فَزِعَ[1] إليك بَنُوها ، وهَرَعَ إليك ساكنوها ؛ هلالاً وصليبا[2] ، بعيدًا وقريبا ، شُبَّاناً وشِيبا ، نجيبَةً ونجيبا[3] ؛ مُستَبِقِينَ[4]

---

(١) فزع إليه : استغاثه .
(٢) أى من يحمل الهلال ومن يحمل الصليب .
(٣) النجيب : الكريم الحسيب . والنجيبة : مؤنثه .
(٤) استبقوا : أى تسابقوا إلى .

كنائِسَك المكرَّمة ، التى رفعْتَها لقدسك أعْتَابا ، مُيَمِّمين مساجدك المعظمة ، التى شرعْتَها لكرمك أبوابا ؛ نسألك فيها بعيسى روح الحق ، ومحمد نبىِّ الصدق ، وبموسى الهارب من الرقّ ؛ كما نسألك بالشهر الأَبَرِّ والصائِميه[1] . وليلهِ الأَغرِّ والقائِميه ، وبهذهِ الصلاةِ العامَّةِ من أقباط الوادى ومُسْلميه : أن تُعزَّنا بالعتق[2] إلَّا من وَلَائِك ، ولا تُذِلَّنا بالرق لغير آلائِك ، ولا تحملنا على غيرِ حكمِك واستعلائِك[3] . اللهم إنَّ الملأَ[4] مِنَّا ومنهم قد تداعَوْا[5] إلى الخُطَّة الفاصلة والكلمة الفاصلة : فى قضيتنا العادلة ، فآتنا اللهم حقوقَنا كاملة ، واجعل وفدَنا فى دارهمْ هو وفدَك ، وجندَنا الأَعزل إلا من الحق جندَك ، وقلِّده[6] اللهمَّ التوفيق والتسديد وأعْصمْهُ فى ركنك الشديد . أقمْ نوَّابنا المقامَ المحمود ، وظَلِّلْهُمْ بظلِّك الممدود ، وكن أنت الوكيل عنَّا توكيلًا غير محدود ، سبحانك لايُحَدّ لك كرمٌ ولا جود ، ويُرَدُّ إليك الأَمرُ كلُّهُ وأمرُك غيرُ مردود ، واجعل القوم محالفينا ولا

---

(١) أى الذين يصومون فيه ، وكذلك القائميه ، وهنا « أل » موصولة .
(٢) العتق : التحرير من الرق .
(٣) الاستعلاء : الغلبة .
(٤) الملأ هنا : بمعنى أشراف الناس .
(٥) اجتمعوا .
(٦) قلده السيف : وضع حمالته فى عنقه .

تجعلهم مخالفينا ، واحمل أهل الرأى فيهم على رأيك فينا . اللهم تاجَنا منك نطلبُه ، وعَرْشَنا إليك نخْطُبُه ، واستقلالَنا التامَّ بك نستوجبُه ؛ فقَلِّدْنا زمامَنا ، وولِّنا أحكامَنا ، واجعل الحق إمامنا ، وتمِّمْ لنا الفرح ، بالتى ما بعدها مُقْتَرح ولا وراءها مُطَّرح[1] ؛ ولا تجعلنا اللهمَّ باغين ولا عادين ، واكتبْنا فى الأرض من المُصْلحين ، غيرِ المفسدين فيها ولا الضالين . . . آمين .

---

(١) اطرح الشيء : أبعده وطرحه .

الشباب

الشَّبابُ أيامُ آذار[١] ، ودولَة العذار[٢] ، وأعِنَّةُ الأوطار[٣] وليلة العُرس فى هذه الدار ، سِنَةٌ كالطيف سُراها[٤] ، وكقُبْلة الخَلْس[٥] حُلمٌ كراها ، ونشْوَةٌ يتلفَّت المستفيق لا يراها ، وجِنَّة لَوخُيِّر المُقْبلُ[٦] بالعقل اشتراها ، العشقُ فى غير جَنَاحه[٧] ، طائرٌ لا ينهضُ به جَنَاح ؛ والكأس من غير راحِه غبيَّة الساق بليدة الراح[٨] ؛ والمالُ فى غير خزانته غريب ، ويتحوَّلُ عن قريب ، رؤيا الوارث فى نومِه ، وشغله فى يومه وملْكُ يدِه ، فى غدِه ، السلطانُ والدَّوْلة ، والإمكان والصَّوْلة والملْكُ وكلُّ ما حوله ، نعَمٌ إذا لم تُحرَز فى الشباب فما هى

---

(١) « اذار » فى الشهور العبرية يقابل « مارس » فى الشهور الافرنجية ، وهو مستهل الربيع .

(٢) العذار : جانب اللحية .

(٣) الأوطار : الأغراض .

(٤) السنة : الغفلة أو فتور يتقدم النوم . والسرى : السير فى الليل .

(٥) الخلس — من خلس الشيء : أخذه فى مخاتلة .

(٦) الجنة . الجنون . والمقبل : المجنون يشفى من جنونه .

(٧) فى غير كنفه .

(٨) غباوة الساق وبلادة الراح : كناية عن ضالة فرحها وضعف نشوتها .

فى الحِرْز الحريز[١] ، ودُوَلٌ إذا لم تعتَزَّ به فليست فى الذُّرا[٢] العزيز ؛ ولذاتٌ إذا لم يشهدْها غادَتْها حسْرةُ الفَوْت ؛ وراوَحَتْها فكرةُ الموت .

أَرْوعُ الشهرة ماطار فى سمائه ؛ وأَمْتَعُ الصيت ماسار تحت لِوائِه . وأَحسنُ الثناء ما أَتى فى أَثنائه ، ورفَّ على قشيبِ ردائه[٣] ؛ فى مطالعه يَرُوع النبوغ . كما تروعُ الشمسُ فى البزوغ ، أَو الهلالُ الغلام[٤] فى البلوغ .

فياناهبَ شبابه ، قاعدا للتَّجْر[٥] ببابه ، يسرفُ فى الرَّحيق وحُبَابِه[٦] ويُتْلِفُ الصِّبَا بين صبابته وأحبابه ... أُفٍّ ! تلك دِنَان[٧] ، لاتَقْوَى على الإدمان[٨] ، ولا تملؤها مرتين الزمان ، كَرْمٌ لا يوجدُ فى الجنان ، ولا ينبت فى « مالقَةَ » ولا « شَمْبَان »[٩] .

---

(١) الحرز الحريز : الحصن المنيع .
(٢) الذرا : الكنف والمنجا .
(٣) الرداء القشيب : الجديد النظيف .
(٤) أى الصغير .
(٥) التجر : بائع الخمر .
(٦) الرحيق : الخمر . والحباب : الحب .
(٧) الدنان : جمع دن وهو إناء الخمر .
(٨) الادمان : مداومة الشراب .
(٩) شمبان : مقاطعة فى فرنسا اشتهرت بجودة الخمور . ومالقة : مدينة فى أسبانيا ، فى ضواحيها كروم يستخرج منها نبيذ « ملقا » المشهور . وقد استعاض المؤلف بهذين البلدين عن « بابل » و « الدورين » وعما اعتاد العرب أن يذكروا من البلاد إذا ذكروا الخمور .

عناقيدُهُ مُختضَرَة[١] الثمار ، مختصَرَةُ الأعمار ، بريئة الخمر من الخُمار[٢] حَلَبُها[٣] الأفراح وجَلَبُها المِراح وهى فارضيَّة[٤] الراح ، لم تَطَأْها الأقدام ولم تمسَسْها الرَّاح[٥] فلاتعُبُّ الرَّاقود[٦] ، وأشْرَبُهُ نُغْبَةً نَغْبَةً[٧] ، ولا تختَرِطْ العنقود[٨] ، وكُلُّهُ حَبَّة حَبَّة .

---

(١) اختضر الكلأ : قطع وهو أخضر

(٢) الخمار : صداع الخمر وأذاها .

(٣) الحلب : اللبن المحلوب .

(٤) فارضية : نسبة إلى ابن الفارض

(٥) الأكف .

(٦) عب الماء : شربه بلا تنفس . والراقود : دن الخمر

(٧) جرعة جرعة .

(٨) اختر العنقود : وضعه فى فمه ثم أخرج حبوته عارية .

النخيل

شجَرةٌ مَرْآها جَميل ، وظِلُّها مَقِيل[١] ، وأعاليها هَدِيل[٢] وهى مُذَلَلَةُ السَّبيل ، الطيرُ على جَوانِبِها تميل ، والناسُ فى ظلِّها الظليل ؛ فأما الطير فتنزِلُ مُجمِلات[٣] ، وترحَلُ غيرَ مُحَمَّلات ، تسقُط مُشفِقات ، وتَلقطُ مُترفِّقات ، وتشدو بشُكْرِ الصنيعِ مُنطَلِقات ؛ وأما الناسُ فلا يتَّئِدون فى الثَّمَرة[٤] ، ولا يُرَفِّهون عن الشجرة[٥] ؛ يهزُّون أصولَها بعنف ، ويَنفضُون فروعَها بغيرِ لُطْف ؛ يساقِطون الجنى[٦] ، بطَرَفِ العصا ، ويَستنزِلون الثمَر برَمْى الحجر ؛ يلمُّون ويلومون[٧] ويَطْعَمون ويطعنون ويَلْعقون[٨] ، ويَلْعنونَ ؛ يَجنون الثمر ، ويَلْحون[٩] الشجر .

---

(١) المقيل : الذى يؤوى إليه عند الظهيرة .
(٢) الهديل : صوت الحمام .
(٣) أجمل فى الطلب : رفق .
(٤) لا يتمهلون فى جنيها .
(٥) رفه عنه : نفس وخفف .
(٦) يساقطونه : أى يتابعون إسقاطه . والجنى : مايجنى من الشجر مادام غضا .
(٧) يلمون الثمر ويلومون الشجر ؛ لأنه لم يشبع نهمهم .
(٨) لعق العسل : لحسه والمراد التمتع بحلاوة الثمر .
(٩) لحا الشجرة : قشرها ؛ ولحاه أيضا : سبه وعابه .

الظالم

قَليلُ المدّة ، كَليلُ العُدَّة[١] ، وإن تظاهر بالشدَّة ، وتناهَى فى الحِدَّة ، عَقْرَبٌ بشَوْلتها[٢] مُختالة ، لاتَعدَمُ نعلًا قتَّالة ، ريحٌ هَوْجاءُ لاتلبثُ أن تتَمزَّقَ فى البيد[٣] ، أو تتحطَّمَ على أطراف الجلاميد[٤] ، فتَبيد ، جامحٌ[٥] راكبُ رأسه ، مُخايِلٌ بباسِه ، غايتُه صخرةٌ يُوافيها ، أو حُفرةٌ يَتَردّى فيها ، سيلٌ طاغ لايعدَمُ هضاباً تقِفُ فى طريقه ، أو وِهادًا[٦] تجتمِعُ على تفريقه ، جِدارٌ مُتداعٍ أكْثَرُ مايتهدَّد[٧] ، حين يَهُمّ أن يَتهدَّد[٨] ، هو غدًا خراب ، وكوْمةٌ من تراب ، نارٌ مُنقطِعَةُ المَدد ، وإن سدّت الجَدَدَ[٩] وملأتِ البلد ، يأكُل بعضها بعضاً كنار الحسد .

---

(١) السيف الكليل : الذى لا يقطع .
(٢) الشولة : ماترفع العقرب من ذنبها .
(٣) جمع بيداء وهى الفلاة .
(٤) جمع جلمود : وهو الصخر .
(٥) أى فرس جامح .
(٦) جمع وهدة : وهى الهوة فى الأرض .
(٧) أى أكثر مايخاف منه .
(٨) أى يسقط .
(٩) الجدد : الطريق الواسع .

القلب

ياطبيبَ الجَماعة : قُمْ أَلق السَّاعة ، وسَلْ هذه السَّاعة[١] مَن أَدقَّ اللَّحمَ صِناعة ، ومَنَح الدَّمَ المَناعة ؟ مُضْغةٌ[٢] إذا فتَرَتْ[٣] سُلبْتَ البراعة ، ولَبِسْتَ العَجْزَ والضَّراعة[٤] ، تدابيرُك عِندئذ مُضاعة ، وعقاقيرُك مُزجاة[٥] بِضاعة .

---

(١) المراد بالساعة هنا : القلب ، شبه بها بجامع الدق المنتظم في كل .
(٢) قطعة لحم .
(٣) فتر : سكن بعد حدته .
(٤) الضراعة : الضعف .
(٥) البضاعة المزجاة : أي الرديئة .

الذكرى

من البرِّ ياقلبُ أن تَذَّكرْ[١] فَمِلْ بى على الفائتِ المُنْدَثِرْ
ولا تَأْلُ[٢] ذِكرَى ولا تَدَّخِرْ

هَلُمَّ نَنشُرْ مَطْوِىَّ الصَّفَحَات ، ونُقَرِّبْ نازحَ[٣] اللَّذَّات . ونَؤُبْ من سَفَرِ الأَيَّام بغائب اللُّبَانات[٤] . أَعِدْ عَلَىَّ من دَقَّاتِ نَاقوسِكَ ترنيما[٥] كان لذيذَ الحواشى رخيما . ومن دقائق ساعتِك مارنَّ فى أُذنى قديما . فمازلتَ ياقلبُ تقْضِى الحُقوق ، وتذكرُ العهودَ فتَجْزِيها التَّلَفُّتَ[٦] والخفوق . حتى كأنَّك قلبان ، اثنان ، قلبٌ مع الماضى مُتخَلِّفُ العِنان . وقلبٌ يسايرُ رَكْبَ[٧] الزمان ، بِعيشك قلْ لى : من علَّمَك ردَّ الأَحلام ؟ ، ورُجوعَ القَهْقَرَى فى نواحى الأَيام ؟ ، ومن رَسَمَ لك الإِلْمام[٨] بدِمْنة عَيْش أو برَسْمِ غرام[٩] ؟ . ومن

---

(١) اذكر الشيء : ذكره .
(٢) ألا فى الأمر يألو : قصر فيه وأبطأ .
(٣) النازح : البعيد .
(٤) اب يؤوب : رجع . واللبانات : الحاجات .
(٥) الترنيم : تطريب الصوت .
(٦) تلفت القلب . كناية عن الشوق .
(٧) الركب : راكب الخيل أو الابل
(٨) يرسم له كذا . أمره به وألم بالقوم إلماما : زارهم زيارة قصيرة .
(٩) الدمنة : أثار الدار . والرسم : ما كان لاصقا بالأرض من عفا الآثار

علَّم الدَّمَ وَصْلَ الحبال[١] ، وَحمَّل اللحمَ مايوهن الجبال ، من الحنين إلى سالف خال ، أو البُكاء على دارس بال ؟ وما سُلطانُك ياقلْبُ حتى تُدْنَى المُمْعنَ[٢] فى بُعْده ، وتجِدَه وإن تطاولَ العهدُ على فَقْده ؟ ومن علَّمك أن تتحدَّث ، وتقلبَ الأَقْدَم والأَحْدَث[٣] وتذكرَ الصِّبَا وأيامَه ، ووادِيَهُ وآرامَه[٤] وبِساطَه ومُدامَه ؟ . . .

هو اللهُ الذى صَوّرك فأَدَقَّك ، وقدّر خفوقَك ودقَّك ، ومهَّدَك وزقَّك[٥] ، وكتب عليك فى الضُّلوع رِقَّك[٦] ؛ وما أنت لولا التذكرُ والفكر ، إلا كبعْض القلوبِ إذ هى حَجَر ، ينفجرُ بالعَذْب ولا يَعلمُ كيف انفجر ، ولا متى نَبَعَ ولا أين انحدر أو كالأَرضِ يذهبُ شَجرٌ ويأْتى شَجر . فلا تذكُر ماغاب ، ولا تشعُرُ بما حَضَر .

---

(١) المراد بالحبال هنا : العهود .
(٢) الممعن : المبالغ .
(٣) مبالغة فى القديم والحديث .
(٤) الآرام : جمع رئم وهو الظبى الخالص البياض .
(٥) زق الطائر فرخه : أطعمه بمنقاره .
(٦) إشارة إلى سجنه تحت الضلوع من يوم الميلاد إلى يوم الوفاة .

شاهد الزور

ياشاهدَ الزُّور ، أَنت شرُّ مَوْزُور[1] ؛ ضلَّلْتَ القُضَاة ، وحَلَفْتَ كاذباً بالله ؛ ونِلْتَ الأَبْرِيَاءَ بأَذاة[2] ، وحُلْتَ بين القِصَاص والجُناة ، واللهُ يقولُ : « وَلَكُم فى القِصَاصِ حَيَاة » .

---

(١) الموزور : الذى يحمل الاثم .
(٢) المكروه .

الصبر

بعضُ الصبرِ تَجلُّد ، وتَمَّ الحزمُ والرِّضا ؛ وبعضٌ تَبَلُّد[١] ، ومنه العَجْزُ والاستِخْذاء[٢] ، ليس الصبرُ غِلْظةَ القلْب ، وبلادةَ الّلب ؛ أو الجهلَ على الأَقدار ، وإنكارَ الإيرادِ عليها والإصْدار ؛ ولا هو اكتظاظ الأَندية[٣] ، وألفاظٌ تَجرى بالتعزية ؛ ورجلٌ يُحدِّثك بالصَّبر ، وإذا أُصيبَ تمنَّى القبر ؛ إنما الصبرُ استِرْجاعُك[٤] فى النفس الحزينة ، حتى تَفيءَ[٥] إلى السكينة ، وحتى تَفيءَ[٦] من نفسِها إلى الطُّمَأْنينة إيمانٌ يَزَع[٧] ، عند الجَزَع وعقلٌ يَزِن ، إذا القلبُ حَزِن ؛ ومقابلةُ الأَحكام بالحِكْمة ، والعلمُ بأَن النِّعمة نَذير النِّقمة ؛ وبأَن الدَّهرَ حالتان ، والدنيا دَولتان ؛ وأَن من لم يَنتفعْ بالضَّجَرِ رَضِى ، وأَن لكلِّ شىءٍ غايةً وَيَنقَضى .

---

(١) التبلد : الحيرة والتلهف .

(٢) الاستخذاء : الخضوع .

(٣) امتلاء المجامع بأخلاط المعزين .

(٤) قولك « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

(٥) ترجع .

(٦) تلتجىء .

(٧) يمنع من الحزن .

شهادة الدراسة
وشهادة الحياة

ما بالُ النَّاشِىءِ وصَلَ اجتهادَه ، حتى حَصَلَ على الشَّهادَة ؛ فلما كَحَّلَ بِأَحْرُفِها عينَيْه ، وظفِرَتْ بزُخرُفِها كِلتا يَدَيْه ؛ هَجَرَ العلمَ ورُبوعَه ، وبَعَثَ إلى معاهِدِهِ بأُقْطوعة[١] ؛ طَوَى الدَّفاتِر ، وتركَ المحابِر ، وذهب يُخايِلُ[٢] ويفاخِر ، ويدّعى عِلْمَ الأَوَّلِ والآخر ؟

فمن يُنْبيه[٣] ، بارَك اللهُ فيه لأَبيه ، وجَزى سَعْيَ مُعلِّمِهِ ومُربِّيه : أن الشَّهادةَ طَرَفُ السَّبَب[٤] ، وفاتِحة الطَّلَب . والجواز[٥] إلى أقطار العلمِ والأَدب ؛ وأنَّ العلَم لايُمْلَكُ بالصُّكوك والرِّقاع[٦] ، وأنَّ المعرفة عند الثِّقاتِ غيرُ وثائق الإقطاع[٧] . ومَنْ يقولُ له أَرشدَهُ الله : إن شَهادَةَ المَدْرسةِ غيرُ شَهادةِ الحياة ؟ .

---

(١) الأقطوعة : شيء تبعث به الجارية إلى الأخرى علامة للقاطعة والخصام .
(٢) خايل زميله : باراه وفاخره .
(٣) أى يخبره .
(٤) السبب : هو الحبل ، وطرف السبب يراد به مبدأ الحياة .
(٥) الجواز : علامة المرور وصك المسافر .
(٦) الصك : الكتاب ، والجمع صكوك . والرقاع : جمع رقعة ، وهى القطعة المكتوبة من الورق .
(٧) الاقطاع : أن يجعل الأمير غلة البلد للجند .

فيا ناشِئَ الْقَوْمِ بَلَغْتَ الشباب ، ودفَعْتَ على الحياة الباب ؛ فهل تأَهَّبتَ للمَعمَعة[١] ، وجهَّزْتَ النفسَ للْمَوْقِعَة ، ووَطَّنْتَها[٢] على الضِّيق بعد السَّعة ، وعلى شظَفِ العيشِ بعد الدَّعة ؟ دعت الحياة نَزَال[٣] فهلُمَّ اقتحِمِ المجال ، وتوَرَّد[٤] القتال ؛ أَعانك الله على الحياة ، إنها حَرْبُ فُجاءات وغَدرٌ وبَيات[٥] ، وخداعٌ من الناس ومن الحادثات ؛ فطوبى[٦] لِمنْ شهدَها كامل الأَدوات ، موفورَ المُعدَّات ؛ سلاحُه ، صَلَاحُه ؛ وتُرْسُه ، دَرْسه ؟ ويَلَبُه[٧] ، أَدبُه ؛ وصَمْصامتُه[٨] استقامتُه ؛ وكِنانتُه[٩] أَمانته ؛ وحَرْبته ، دُرْبَتُه[١٠] .

---

(١) المعمعة : صوت الأبطال فى الحرب .
(٢) وطن نفسه على الأمر وله : مهدها لفعله وحملها عليه .
(٣) اسم فعل أمر بمعنى : انزل .
(٤) تورد الماء : ورده .
(٥) البيات : الايقاع بالعدو ليلا .
(٦) شجرة فى الجنة كما يقال . وهى الجنة عند الهنود .
(٧) اليلب : الدروع اليمانية .
(٨) الصمصام والصمصامة : السيف الذى لاينثنى .
(٩) الكنانة : جعبة السهام .
(١٠) الدربة : الاختبار والتجربة .

الحياة

القَبَس[١] ، والنَّفَس والرُّوحُ القُدُس ؛ ظاهِرُها هذه الجيفة[٢] . وباطِنُها النفسُ الشريفة ؛ تَبِعَةُ الذَّنْبِ القديم[٣] ، وأَثَرُ آدمَ على الأَديم[٤] ؛ فياطريدَ القَدَر[٥] . ونَفِّ الحُظُر[٦] ، وأبا البَشَر ؛ ما أَطْوَل ذَماءَك[٧] ، وأَدْوَمَ ماءَك ، وما أكثر بناتِكَ وأَبْناءَك ، وأقل اهتمامَك بهم واعتناءَك ! وَلدْتَ للمَوْت ، وأَوْجَدْت للفَوْت ؛ تَقَسَّمَ القَبَسُ نُفوساً بلا عَدَد . وتفرَّق النَّفَسُ فى شَتَّى الوَلَد ؛ فليت شِعرى كيف استقلَّهما صَلْصَالُك[٨] ، وكيف قويَتْ عليهما أَوْصالك[٩] ؟ آمَنَّا بأَنَّكَ الجَدّ ، فهل لهذا التدَفُّقِ حدّ ، أَم ما لِأَمْر الله مَرَدّ ؟

---

(١) شعلة تؤخذ من معظم النار .
(٢) المراد بالجيفة : الجسم الذى لا يلبث أن يموت حتى يجيف .
(٣) ذنب آدم يوم أكل فى الجنة من الشجرة التى نهى عن أكل ثمرها .
(٤) الأديم : وجه الأرض .
(٥) الخطاب لآدم .
(٦) النفى . ما جفأت به القدر عند الغليان ، والحظر : جمع حظيرة ، والمراد بها هنا الجنة
(٧) الذماء : بقية النفس .
(٨) استقل الشىء : حمله والصلصال : الطين الحر خلط بالرمل
(٩) الأوصال : الأعضاء .

الحياة كعهدِكَ بها مَعْصيَة ، عن الحظيرة مُقْصِية ؛ وخَلْوَة حُلْوة ؛ عواقبُها نَغَص[١] ، ومَشاربُها غُصَص ؛ أَفْعَى خدَّاعة ، ولذَّة لَذَّاعة ؛ شَوْكٌ بَغَّضَ الوَرْد ، وقذًى نَغَّصَ الوِرْد[٢] : أُمورٌ شتّى الأَعنَّة ، وحوادثُ وُقَّعٌ وأَجِنَّة[٣] ؛ فقل لمن أَطال التفكير ، وبالغ فى النَّكير[٤] وكَدَّ بَالَه ، ومدَّ بِلْبالَهَ[٥] ، واحترق احْتراقَ الذُّبالة :

خَلِّ اهتمامَك ناحيهْ وخُذِ الحياةَ كما هيَهْ

---

(١) نغص الرجل نغصا : لم يتم مراده فهو قلق حزين .
(٢) الورد : الاشراف على الماء للاستقاء .
(٣) الوقع : جمع واقع ، وهو الحاصل . والأجنة : جمع جنين ، وهو الستور من كل شيء
(٤) النكير : الانكار
(٥) البلبال : الهم ووسواس الصدور

الحياة أيضا

أحقٌّ أنها هيَ الدَّمُ حتى يَجمُد ؟ وأنها هى الحرارة حتى تبرد ؟ وأنها هى الحَركة حتى يَقطعَها السُّكون ؟ وأنها هى الجاران[١] حتى تُفَرِّقَ بينهما المنون ؟ .

الحقُّ أن افتئاتَ[٢] الفلسفة ، على ضنائن الله[٣] سَفَه ، وأن عِلْم الحياةِ عند الذى يَهَبُها ويَستردُّها ، والذى يقصِرُها[٤] ويمدّها ، والذى يُخْلِقُها[٥] ويَستَجدُّها : والذى كلُّ حىّ سواه يموت ، وكلُّ شىءٍ ماخلاه يفوت .

---

(١) الجاران : الروح والجسد . والمتنبى يقول :
* ومفترق جاران دارهما العمر *
(٢) افتأت عليه : اختلق عليه الباطل .
(٣) ضنائن الله عز وجل : ما اختص ذاته بعلمه من الأمور .
(٤) قصر الشىء يقصره : جعله قصيرا .
(٥) يخلقها : يبليها .

الحياة أيضاً

ماذا أقولُ فى ابنة الموتِ وأُمِّه ، وعِلَّةِ حُكْمِه ، ونَبْعةِ سَهْمه[١] ومَنْقَعةِ سُمِّه[٢] ؟ وكيفَ القَولُ فى صاحِبة[٣] ، لم تُمَلَّكْ عن خِطْبَة[٤] ولم يُبْنَ بها[٥] عن رغبة ، ولم تَبِنْ[٦] لملال صُحْبة أو بِغْضَة[٧] بعد محبَّة ؛ تسىءُ ولا تُفْرَكُ[٨] ؛ ونولا الموت لم تُتْرَكْ ؟

---

(١) النبعة : القوس .

(٢) منقعة السم : الاناء الذى يوضع فيه .

(٣) المراد بالصاحبة هنا : الزوجة . والمقصود بها الحياة . وقد شبه المؤلف الجسم والروح فى هذه الجملة وما بعدها ، ثم مضى فى التشبيه يبين وجوه الخلاف .

(٤) أى لم تزوج للجسم بعد طلب يدها كالعادة فى كل زواج .

(٥) بنى الرجل على أهله : زفت إليه .

(٦) بانت المرأة عن الرجل : انفصلت عنه بطلاق .

(٧) البغضة : شدة البغض .

(٨) أى لا تبغض . والفرك خاص ببغضة الزوجين .

اللسان

مضغةُ[١] لحم ، فى عَظْم ؛ سمَّاها الناس اللسان . وعظموها لفضيلة البيان ، فقوّموها بنصفِ الإنسان ؛ عضلٌ نبت من الحُلقومِ وقناتِه ، وثَبَت فى أصل لَهَاته[٢] ، ولبَثَ فى السجن ظِمْءَ حياته[٣] ، لا يتحرّك منه سوى شبَاتِه[٤] ؛ رسولُ العَقل فى النَّقل ؛ وأداة الدِّماغ ، فى البلاغ ؛ وتَرْجمانُ النفس فى رواية العاطِفة ، وحكايةِ الصَّحْوِ والعاصفة ؛ الْوَحْىُ على عَذبَاته[٥] ظَهَر . ومنْ جَنَبَاته انحدر ؛ فكان أوّل من سَفَر[٦] بين الخالق وبين البشر ، ثم فُجِّرَ بالحكمة فانفجر ، ثم علم الشعر فشَعَر ، فسبحان الذى خلقه . وعلَّقه . والذى قيَّدَهُ وأطلقه ، والذى أسكنه وأنْطقَه . والذى يُميتُه فيندَثِر والذى هو على بعثه مُقتدر .

---

(١) المضغة : القطعة .

(٢) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم ، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم .

(٣) ظمء الحياة : من الولادة إلى وقت الموت .

(٤) الشباة : الطرف .

(٥) العذبات : الأطراف من كل شىء .

(٦) سفر الرجل : خرج إلى السفر .

البيان

رَحيقُ النبيِّين[١] ، وإبريقُ العَبْقَرِيّين[٢] ، وحظُّ المرْزُوقين ونصيبُ المُوفَّقين ، وذَرَا الجمال[٣] ، وذُرَا الكمال[٤] ، والتوفيقُ الذى لا يُنال ، بسلطان ولا مال ، والخُلْدُ[٥] الذى يُؤْخَذ باليمين وغيرُه يُؤخَذُ بالشِّمال ؛ صديقُ البشَريَّة ، وعَدُوُّ الجَبَريَّة[٦] ، حادى الإنسانية ، السائِقُ بالمطيَّة ، حتى تَبْلُغَ الطِّيَّة[٧] ، يمرُّ بها على الخير ورُبوعه ، والبرِّ وينْبُوعه ، ويُقْبلُ بها على الحقِّ وقبيله[٨] ، ويعدِلُها إلى العَدْل وسبيله ، ويُلِمُّ بها على الجَمَالِ ومَغْنَاه ، وعُرَف لفْظِه تحتَ حور معناه[٩] ويلِجُ بها على العَواطف ، حنايا الضُّلوع اللَّواطف[١٠] ،

---

(١) الرحيق : الخمر ، وقد شبه بها المؤلف بلاغة الأنبياء بجامع التأثير فى كل : هذا فى العقول ، وهذه فى الأرواح .

(٢) أى الابريق الذى يسرب منه العبقريون فيمطرون الناس روائع الحكمة وفصل الخطاب .

(٣) الذرا : الملجأ .

(٤) الذرا : جمع ذروة ، وهى القمة .

(٥) الخلد : دوام البقاء ، والمقصود به هنا الذكر الخالد .

(٦) الجبرية : الجبروت .

(٧) الطية الجهة التى إليها تطوى البلاد .

(٨) القبيل : الجماعة من أقوام شتى .

(٩) يقال : هذا البيت تحت سا كنه فلان ، وعلى هذا القياس يكون اللفظ تحت معناه

(١٠) اللواطف من الأضلاع : بادنا من الصدر .

وهو المَلِكُ على كلِّ اللُّغات ، قد انتظمَ سُلطانُه أقطارَ البَلاغات ، إذا انتقلَ من لسان إلى لسان ، فى أمانةٍ من الناقل وإحسان ، أَسْرَعَ فى مُضَاهَاته[1] وتمكَّنَ فى جهاته ، تمكُّنَ اللِّسانِ من لَهاتِه[2] ، فكأنه التغريدُ أو البغام[3] ، أو منطِقُ الأَنْعام ، ترجعُ له الأُمم ، وإن ذهبَتْ كلُّ أُمَّة بكلام .

---

(١) أى أسرع فى مشاكلة اللسان المنقول إليه .

(٢) اللهاة . اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم .

(٣) البغام . صوت الظبية .

المال

يامالُ : الدُّنيا أَنْت ، والناسُ حيثُ كُنْت ، سَحَرْتَ القُرون وسَمخِرْتَ من قارون ، وسَعَرْتَ النارَ يانيرون[١] ، تَعَوَّد الحِقدُ أَن يحالفَك ، وأَبى الحسدُ أَن يُخالِفَك ، وكُتِبَ على الشَّرِّ أَن يخالطَكَ ويؤالفَك ؛ الفتنة إن حرَّكْتَها اتَّقَدت ، وإن تركتَها رَقدَتْ ؛ والحَرْبُ وهى الحَرَب[٢] ، تَبْعَثُها ذات لَهَب : منك الرِّياحُ ومنك الحطب ؛ تُزْرى بالكرام ، وتُغرى بالْحَرام ، وتُضْرى[٣] بالإجْرام ؛ فقدانك العُرُّ[٤] والضُّرّ ، ونكَدُ الدُّنيا على الحُرِّ ؛ حالك وحال الناس عَجَب : تملِكهم من المهْد ، ويقولون أَصَبْنا وملَكْنا ؛ وتَرِثُهم عند اللَّحد ، ويقولون ورِثْنَا وتركنا ! من عاشَ قوَّموه بما مَلَك ، ومن هَلَكَ تساءلوا : كم تَرَك ؟ المحرومُ من أَوْثَقَك ، والضَّائع من أَطْلَقَك ، وهما فقيران : مَنْ جَمَعَك ومَنْ فرَّقك ؛ كثيرُك هَمّ

---

(١) سعر النار : وقدها . ونيرون : قيصر من قياصرة الرومان أشعل النار فى روما ، وأشرف عليها من جبل ليبتهج بمنظر الحريق ، وقد ضرب به المثل من هذا اليوم فى القسوة والطغيان .

(٢) الحرب : الهلاك .

(٣) أضرى فلانا بالشر . أغراه به .

(٤) العر . الجرب .

وقليلُك غمّ ؛ ومع التوسُّط الخوفُ والطَّمَع . والحِرْص والجشَع ، حذَرَ النفاد ، ورَغْبَةً فى الازدياد . المِلكُ سوقَةٌ إذا نزل إليك ، والسُّوقَة مَلِكٌ إذا عَلا عليك ، أرخَصْت الجمال ونَقَصْتَ الكمال ، وخطَبْتَ لِهُجنِ الرِّجالِ هِجانَ ربَّاتِ الحِجَال[1] ، صوَيْحِباتك هُنَّ المُفَضَّلات ، وغَيْرُهنَّ المتروكات المعضلات[2] ؛ العريان من ليْس دونَكَ منه سترة ، والمستضْعَفُ من ليس له منك قدْرة ، فسبحانَ مَنْ قَهَر بك الخَلْق . وقَهَرَكَ برجال الخُلْق .

---

(١) هجن . جمع هجين ، وهو اللئيم . والهجان من كل شيء : خياره .

(٢) عضل المرأة : حبسها عن الزواج .

الأهرام

ما أنتِ يا أهْرام ؟ ؟ أشواهِقُ أجرام[١] ، أم شواهِدُ إجْرَامٍ[٢] وأوْضاحُ مَعالِم[٣] ، أم أشْباحُ مَظالِم ؟ وجلائلُ أبنيَة وآثار ، أم دَلائلُ أنانيةٍ واستِئْثَار[٤] ؟ وتمثالٌ مُنَصَّبٌ من الجَبَرية[٥] ، أم مِثالٌ ضاحٍ[٦] من العَبْقَرِيّة ؟ يا كليلَ البصر عن مواضِعِ العِبَر ، قليلَ البَصَر[٧] بمواقِعِ الآياتِ الكُبَر ؛ قفْ ناجِ الأَحجارَ الدَّوارس ، وتعلَّمْ فإن الآثارَ مَدارس ؛ هذه الحجارة حجورٌ لَعِبَ عليها الأُوَل ؛ وهذا الصَّفَّاحُ صَفائح مَمَالكَ ودُوَل[٨] ؛ وذلك الرُّكامُ[٩] من الرِّمال ؛ غُبَارُ أحْداجٍ[١٠] وأحْمَال ، من كلِّ رَكبٍ أَلَمَّ ثمَّ مال[١١] ، فى

---

(١) الأجرام : الأجسام . والشواهق : المرتفعة .

(٢) يشير المؤلف إلى ما ارتكب بانيها من ظلم وإرهاق وتسخير .

(٣) الأوضاح : الغرر . والمعالم : ما يستدل بها على الطريق من آثار .

(٤) استأثر بالشيء على غيره : استبد به وخص به نفسه .

(٥) الجبروت .

(٦) الضاحي هنا : بمعنى البارز .

(٧) البصر : العلم .

(٨) الصفاح : الحجارة العريضة . والصفائح : حجارة عراض رقاق تسقف بها القبور ، والمراد بها هنا نفس القبور ، من تسمية الكل باسم جزئه .

(٩) الركام : التراكم .

(١٠) الأحداج . جمع حدج وهو الحمل ، أو مركب من مراكب النساء .

(١١) الركب : ركاب الخيل والابل . وألم بالقوم : زارهم زيارة قصيرة ، ...

هذا الحَرَمِ درجَ عيسى صَبيًّا[١] . ومن هذا الهَرَم خرجَ مُوسى نبيًّا ، وفى هذه الهالَةِ طلَع يوسفُ كالقمر وضيًّا[٢] ، ووقَعتْ بين يديه الكواكِبُ جِثِيًّا[٣] ، وههنا جلالُ الخُلْقِ وثبوتُه ، ونفاذ العقل وجبَروتُه ، ومَطالعُ الفنِّ وبيُوته وهٰهنا تتعلَّمُ أن حُسْنَ الثناء ، مرهونٌ بإحسان البناء .

= فى أجزاء هذه الفقرة استعارة شبهت فيها كل دولة بركب لايلبث أن يحط حتى يشد الرحال وشبهت الرمال فى أرض الأهرام بما يتخلف عن أحمال هذا الركب من غباره ولا يخفى مافى الفقرة بأكملها من مراعاة النظير .

(١) يشير المؤلف إلى المدة التى أقامها السيد المسيح مع أمه وهو طفل فى المكان الذى يطلق عليه الآن « شجرة مريم » بمطرية الزيتون .

(٢) الوضى : الوضيء ، وهو الحسن النظيف .

(٣) جثيا : جمع جاث ، وهو الجالس على ركبتيه ، وهنا إشارة إلى حلم يوسف عليه السلام : (يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) .

الأمس

أمسِ ما أمس ؟ خَطْوَةٌ إلى الرَّمْس[١] ، خرزة هَوَتْ عن السِّلْك ، أغلى من خَرَزاتِ المُلْك[٢] ؛ صحيفةٌ طُوِيَتْ والصحف قلائل ، من كتابِ العُمُر الزائل ؛ ثُلمةٌ[٣] فى الجدار . وهَتْ لها الدار ، وأنت غَيْرُ دَار . جزءٌ من عمرك حَضَرْتَ وفاته ، وقَبَرْتَ بيدك رُفاتَه[٤] ، لم تُرِقْ عليه عَبرة ولم تشيِّعه بالتفاته ؛ وهو القاعِدة[٥] التى يُبْنَى عليها العُمر ، والحَبُّ الذى يَنْبُتُ عليه الشجر ، ويخرج منه الثَّمَر ؛ وهو الخبر والأثر ، والكتب والسِّير ، والأُسى[٦] والعِبَر ، وهو أبو يَوْمِكَ ، والولدُ سرُّ أبيه . وجَدّ غدك ، فاجْعَلْه النبيلَ فى الجدودِ النبيه .

---

(١) الرمس : القبر مستوياً مع وجه الأرض .
(٢) خرزات الملك : جواهر تاجه .
(٣) الثلمة فى الجدار : الخلل .
(٤) الرفات : الحطام .
(٥) قاعدة البيت : أساسه .
(٦) الاسى : جمع أسوة : وهى ما يتعزى به الحزين .

اليوم

طَلَعَتِ الشَّمس ، ونُفِضَتْ الخَمْس[١] ، من تُراب أمْس ، وانصرف بنو الأيام من الجنازة ، وقد هان عليهم اليوم الراحل ، كما هان على المسافر مَطْوِىُّ المراحل[٢] . فلا العَبْرةَ أَراقوا ، ولا على العِبْرة أفاقوا ؛ شغَلَتْهم دُنياهم وأمِنوا منايا هُم وألهاهمْ هواهم ، فهلكوا دون مناهم ؛ فسبحان الذى ألْهَى بالأمل ، وشغَل بالعمل . واستنهض الإنسان لأعباء اليوم فحمل ؛ والَّذى جَعَلَ الأَمسَ أحاديث ، ومواريث ؛ وجَعَلَ اليومَ مجال الناهضِ الناهز[٣] ، وجعل غدا يوم العاجز ؛ فيا ابن الأيام لا تعقِدْ مناحة الأمس ، ولا تقعُدْ تحرس الرمس ؛ ولا تُفْسد شُغْلَ اليوم بالإرجاء[٤] ، ولا تُلْقِ على غدٍ كُلَّ الرجاء ؛ واعمل فى يومك ما أمكَنَ العمل ، وتمتَّعْ به ماتَسنَّى التمتع ؛ فما تعلم ماقُدَّامك من عوائق ، ولا مادونك من بوائق[٥] ، وما تدرى : أعْوَامٌ حياتُك أم دقائق ؟

---

(١) الخمس : أصابع اليد .

(٢) طوى المرحلة : قطعها .

(٣) الناهز : الذى يغتنم الفرص .

(٤) الارجاء : التأخير .

(٥) البوائق : المصائب .

الغد

غُيُوبٌ محجوبة ، وحُجُبٌ مضروبة ، وأَقْدَارٌ مكتوبة ؛ أعمارٌ موهوبة ، أو منهوبة ، وأرزاقٌ مجلوبة ، أو مسلوبة ؛ بريدُ المَلِك القَهَّار ، مَوْعِدُه حواشي الأَسحار[١] ، أو غُرّة النهار[٢] ؛ حملت الفجاءات نجائبُه[٣] ، واشتملت على المستجدات حقائبُه[٤] ، وبلغت مُستقرَّها مُغَرِّباتُه[٥] وجوائبُه[٦] ؛ أقبل فَفَضَّ المختوم ، وظهر المكتوم ، وانفجر المحتوم ؛ وإذا مَنَاعٍ وبشائر ، وإذا دَوْلاتٌ[٧] ودوائر[٨] . واعلم يا ابن الأَيام أن الغد أعدّه الله لك خيرَ ما أعدّه ، ومدّه لك أَيْمَنَ[٩] ما مَدّه ؛ هو الشخص الثالث ، في رواية الأَيام والحوادث[١٠] والخَلفُ من صاحبيه والوارث ؛ وهو مَعْقِدُ الآمال[١١] ،

---

(١) السحر : قبيل الصبح .

(٢) غرة النهار : أوله .

(٣) النجائب : جمع نجيبة ، يقال : ناقة نجيبة ، أى كريمة الأصل .

(٤) الحقائب : جمع حقيبة ، وهى خريطة يعلقها المسافر فى الرحل للزاد ونحوه .

(٥) و (٦) المغربات : الأخبار الطارئة ، والجوائب كذلك .

(٧) دولات الأيام : انقلابها من حال إلى حال .

(٨) الدوائر : الدواهى .

(٩) أيمن — من اليمن : وهو البركه .

(١٠) شبه الحياة برواية أبطالها ثلاثة : الأمس واليوم والغد .

(١١) معقد الآمال : موضع انعقادها .

ومَوْعِد استئناف الأعمال ، ومَرْمَى همّة[١] المال ، تنام الأنفس وفى إيمَانها منه شَكّ ، وفى أيْمَانها منه صَكّ[٢] . فاعمل له ما استطعت ، وانتظرْه أتى أم لم يأْت ؛ وقل سبحان الذى أتى به ، والذى هو قادرٌ على طَىِّ كتابه ، يوم يأْتيه أمره ؛ فلا يَبْرُزُ من حجَابه .

---

(١) يريد بهمة المال : فوائده .

(٢) الصك : كتاب الاقرار بالمال ونحوه ، يريد أنه واثق بقدومه .

المسجد الحرام

الساحةُ الكُبرى ، والدار اللَّمُوم[١] ، والمَوْسِمُ الحاشر[٢] المُنْتَدى والمؤتَمر ، ومَثابَةُ الزُّمَر[٣] ، إبْرَةُ المُبْحِر ، ونَجْمُ المُصْحِر[٤] ، قِبْلَةُ البَدَوِيِّ فى قَفْرِه ، ووجهةُ القَرَوِيِّ فى كَفْره[٥] ، حَرَمُ الله المُطَهَّر ، وبَيْتُهُ العتيقُ المُسَتَّر[٦] ، الذى وَجَّهَ إليه الوُجوه ، وفَرَضَ على عباده أن يَحُجُّوه ، نَظَرَتْ إليه المساجِدُ فى كلِّ خَمْس[٧] ، وقامَتْ إليه قيامَ الحِرْبَاء[٨] إلى الشَّمْس ، بناهُ الله بمكةَ على فضاءٍ زكىّ لم يتنفَّسْ فيه الناس[٩] ، وخلا إلا من جُحر أو كِناس[١٠] ، فلا الدُّنْيا

---

(١) اللموم : التى تجمع الناس .

(٢) الحاشر : الجامع .

(٣) المثاب : مجتمع الناس بعد تفرقهم ومنه المثابة . قال تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا) والزمر : الأفواج المتفرقة بعضها فى إثر بعض .

(٤) المبحر : راكب البحر . والمصحر : المسافر فى الصحراء ، وعادة المبحر أن يهتدى إلى سبيله ببيت الابرة « البوصلة » ، وعادة المصحر أن يهتدى إلى غايته بالنجوم ، وقد شبه المسجد الحرام بالابرة والنجم ، بجامع هداية السائر الحائر فيهما .

(٥) الكفر : القرية .

(٦) المستر : المغطى بالأستار .

(٧) الخمس هنا : الصلوات .

(٨) الحرباء : حيوان يستقبل الشمس ويدور معها ويتلون بلونها .

(٩) الفضاء الزكى . الصالح ، وتنفس الناس كناية عن وجودهم .

(١٠) الكناس : بيت الظبى فى الشجر .

سحَبَتْ عليه غُرُورَها ، ولا النفوسُ نَقَلَتْ فيه شُرُورَها ، ولا الحياةُ أَزَارَتْهُ باطِلَها وزُورَها ، لو شاءَ اللهُ لبنَى بيتَه بمصرَ على نَهر فيَّاض ، ووادٍ كلُّهُ قطَعُ الرِّياض ، ولو شاءَ الله لاتَّخذ بيتَهُ بالشام بين الجدَاولِ المظلَّة ، والرُّبَى المكلَّلة[١] والغصون المهدَّلة ، والقُطوف المذلَّلةَ[٢] ، ولو شاءَ اللهُ جلَّتْ قُدْرَتُهُ لرفَع بيتَهُ على أُنوفِ الجبابِرَة ، ملوكِ الأَعْصرِ الغابرة ، وفوقَ هام آلِهَتِهِمْ وهى ممهَّدَةٌ مُنضَّدَة[٣] ، فى الْغُرَف المشيَّدَة ، والقِباب المُمَرَّدَة[٤] ، ولكنه تعالى نظر إلى أُمِّ القرى[٥] ، فرأى بها ذُلًّا لِعِزِّ سُلطانِه ، وافتقاراً إلى غناهُ وإحسانِه . ورأى خُشوعاً يستأْنِس به الإيمان ، وتَجَرُّدًا تسكنُ إليه العبادَة ، ورأى انفرادًا يجرى فى معنى التَّوحيد ، فأَمرَ إبراهيمَ حَواريَّه[٦] ، وبنيِّه وخَليلَه وصَفِيَّه : أَن يرفع بذلك الوادى رُكْنَ بَنِيَّتِه[٧] ، وينصُبَ بين شِعابِه[٨] منَارَ وحدانِيَّتِه ، بنُيانٌ قَامَ بالضَّعْف

---

(١) الربى . الأراضى المرتفعة . والمكللة . المتوجة ، والمراد أنها متوجه بالزهر والأعشاب .

(٢) القطوف : الثمار . والمذللة . المدلاة . ومنه قوله تعالى (وذللت قطوفها تذليلا) .

(٣) الهام : الرءوس . والمنضدة : المتراصفة ، والمراد بالآلهة هنا : الأصنام .

(٤) الممردة : الطويلة الملساء .

(٥) مكة المكرمة .

(٦) الحوارى : الرسول .

(٧) البنية : الكعبة .

(٨) الشعاب : الطرق .

والقوّة[١] ، ونهض على كاهِلِ الكُهولةِ وساعدِ الْفُتُوَّة ، واشتركتْ فيه الأُبُوَّةُ والبُنُوَّة ، فكنتَ ترى إبراهيم يزاوِل[٢] ، وإسماعيل بينَ يديْهِ يُنَاول ، حتى بنيا حقًّا أَعْيَا المعاول ، وعَجَز عنه الذى دمَّر تَدْمُرَ وأَبَلى بابل[٣] : فانظُر إلى صُفَّاحِ الْبَاطلِ كيف باد ، وإلى آجُرِّ الحقِّ[٤] كيف أفنَى الآباد ؛ وتأَمَّلْ عجائِبَ صُنْعِ النِّيَّة ، وكيف ظفرتْ لبنةُ[٥] التوحيد بصَخْرةِ الوَثنيَّة ؛ بُنِيَ البيتُ وإذا الجلال حُجْبهُ وأستارُه ، والحقُّ حائِطُه وجدَارُه ، والتَّوحيدُ مَظْهرُه ومَنَارُه ، والنبيُّون بُنَاتُه وعُمَّاره[٦] . واللهُ عزَّ وجلَّ ربُّه وجاره ؛ اطَّلعت به « صلاح »[٧] ، اطِّلاعَ المشكاةِ[٨] بالمصباح ، فزهَرَ فأَضاءَ الْبَرَاح ، وانتظمَ الهِضابَ والبِطَاح ؛ أَضْوأ من الشمس ذبالَة وأَبْهر من القمر هالَة ، فى منازلِ الشَّرَفِ والجَلالَة ؛ قد حازَ الله له من نباهةِ الذِّكر ، وفخامة الشَّأْن ، مالم يَحُزْ لقديم

---

(١) ضعف الكهولة وقوة الشباب المتلازمان فى إبراهيم وإسمعيل .

(٢) زاول الشيء : عالجه .

(٣) تدمر : قلعة مشهورة . وبابل : بلد بالعراق ينسب إليه السحر والخمر . والذى أهلك « تدمر » وأبلى « بابل » هو الدهر .

(٤) الصفاح : الحجر العريض . والآجر : ما يبنى به ، وهو المعروف « بالطوب » .

(٥) اللبنة : ما يضرب من الطين للبناء .

(٦) العمار : السكان .

(٧) لقب من ألقاب مكة المكرمة .

(٨) المشكاة : الطاقة .

من معالمِ الحقِّ ولا حديث - بِرُّ العِبادة ، وفضيلةُ الحج ، وشرف البانى ، ورَوْعةُ العِتْقِ ، وجَلالَةُ التاريخ ؛ يقول الغُوَاة : لو كانتِ الكعبةُ من ذهبٍ أو فضَّة ، ويقولون : لو كانت كبيع النَّصارَى فى عواصم الغَرْب : رفعةَ بناء ، وديباجةَ فنّ وَوَشْيَ زُخْرُف ! . وأقولُ للغُواة : لو تُرِكَتْ الكعبة على فِطْرتِها الأُولىَ ، فلم يُطَوَّلْ بناؤها ، ولم تُزيَّنْ بالذهب أَجْزاؤها ، ولم تتعدَّدْ فى الزُّخرُف أشياؤها ؛ لكانَ بعبقريَّتها ، وبرُوحانِيَّتِها أشبه ؛ وأخلق ؛ وفى تقدير قُدُسِها[1] غاية ونهاية

---

(١) القدس : الطهر .

الشهادة

قصيدةٌ عُلْويّةُ الرَّوِىّ ، مطْلَعُها اللهُ ومقطَعُها النبىّ ؛ كلمةٌ هى الدِّين ، وهى كنْهُ[١] اليقين ، وهى الحقُّ المُبين ؛ أرسلَها الأذان سَمْحةً ، فَقرَّت فى الأذهان أوَّلَ وَهْلة ؛ ولِم لا ؟ وهى الحقيقةُ العُريانة ، والصبحُ الذى عَرَضَ عِيانَه[٢] ، فكفى العُيونَ بُرهانَه وبيانَه ؛ كانت شعار[٣] الدَّاخلِ فى الدِّين الجديد ، وجوازَ[٤] الخارج إلى أقطار التَّوحيد ؛ ولم تَزَلْ مُقدِّمَةَ الكتاب وفاتِحةَ الخطاب ، ومفتاحَ الباب ، وحافَةَ الغاب[٥] ؛ إذْنٌ سَهْل ، وحجابٌ سَمْح ، وساحة فَضل لاتحجُبُ مستأْذِنا ؛ ولا تتصعَّبُ على مُعالج ، ولا تضيقُ بنزيل ، ومن عبقريَّةِ الشَّهادة ـ أماتنا اللهُ وإياكَ عليها ـ إنَّ حُسْنَ الظنِّ بالله طالما أوقعَ فى نفوسِ الجماعاتِ أنها أفضلُ عملِ العبدِ عند ربِّه ، وأنها ربما قامتْ مقامَ الأداءِ عن سائرِ الفرائِض ، حتى فرَّط.

---

(١) الكنه : الأصل والغاية .
(٢) العيان : الشخص .
(٣) الشعار : مايعرف عند المولدين (بسر الليل) .
(٤) الجواز : صك المسافر .
(٥) الحافة : الجانب ، والمراد بالغاب هنا : مأوى الحق والتوحيد .

المفرِّطون ، وهُمْ عليها يتّكِلون ، وتكثّرَ من الخطايا المذنِبون ، وهم يرجُون عندها النجاةَ ويأمُلون . إذا حضرَ الموتُ هوّنتْ لِقاءه ، وقلّلتْ هَوْلَ ماوراءه ، وجعلَها الخائفُ أمْنَه ورجاءه ، والقليلُ العزاءِ أُسْوَتَهُ[1] وعَزاءه . وقدّمَها المُقِلُّ[2] بين يديهِ عملًا يرجو جزاءه .

---

(١) الأسوة : مايتعزى به الحزين .

(٢) قليل الحسنات والصالحات .

الصلاة

(١) الطهارة :

كمالُ أدبِ الصَّلاة ، وتمامُ الخدمة والتعظيم لله . عند توجُّه العبدِ إلى مولاه . شُرِعَتْ وسيلة . وسُنَّةٌ جميلة ، وصالحةً وفضيلة ؛ حُكْمٌ حِكمتُهُ لائتم . حتى ينتظمَ النَّفْس والجِسْم ؛ فإن جَمَعْتَ نَقاء الباطن والظاهر فأنت الذى صَلَّى له[١] وهو طاهر . ولو قُصِرت الطهارة على وُجوهٍ تُغْسَل ، وأرساغٍ[٢] تُبَلَّل ، وثيابٍ تُنَظَّفُ وتُجَمَّل ؛ لكانَ الميْتُ أطهرَ من الحىّ[٣] ؛ فيا أصحابَ الوُضوءِ غسلتُم الجوارح[٤] ، فهل غَسَلتُمُ الجوانِح ؟ ورَحَضْتُمْ[٥] الأطراف . فهل رَحَضْتُم الأجواف ؟ طَهَّرتم الرَّاحَ من الأنجاس[٦] ، فهل طهَّرتموها من أشياءِ الناس ؟ ونَظَّفتُمْ من الطُّرقِ[٧] الأقدام . فهل

---

(١) الهاء ضمير الشأن .

(٢) جمع رسغ : وهو المفصل ما بين الساعد والكف .

(٣) لأن غسل الميت تام وكفنه من ثياب جدد .

(٤) جمع جارحة : وهى العضو المكتسب من أعضاء الانسان .

(٥) غسلتم .

(٦) الراح جمع راحة : وهى الكف .

(٧) المراد بالطرق هنا : ما يعلق بالقدم من أقذارها .

نظَّفْتُمُوها من سبل الحرامِ ، ومسالِكِ الإجرامِ ؟ وتلك الوجوهُ الممسوحَة بالماء ، هل تَرقْرَق فيها الحياء ؟ وهل نُقِّيت من وَضَرِ[1] الرياء ؟

(ب) الصلاة :

لو لم تكُنْ رأْسَ العبادات ، لعُدَّتْ من صالحة العادات ، رياضة أبْدان ، وطهارُة أردان[2] ، وتهذيبُ وجدان ، وشَتْى فَضائِلَ يَشب عليها الجوارِى والوِلدان .

أصحابُها هم الصابرون ، والمثابِرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عَوَّدَتْهم البُكور ، وهو مِفتاحُ باب الرزق ، وخيرُ ما يُعالج به العَبْد مناجاةُ الرازق ، وأفضلُ ما يرودُ به المخلوق التَّوجُّه إلى الخالق ؛ ولهم إليها بعد البُكورِ رواح ؛ فإذا هى تصرفُهم عن دواعى الليل ومغرياته ، وتعصِمُهم فيه من عوادى الفَراغِ ومُغوياته ، والليلُ خلواتٌ وشهوات ، وبيتُ الغَوايات .

وتجزئَةُ الوقت مع الصلاةِ ملحوظَة ، وقيمته عند الذين يُقيمونها مَحْفُوظَة ، عوَّدتْهم أن يذكروه ، ويُقَدِّروه ، وأن

---

(١) الوضر : الوسخ .

(٢) الردن : الغزل أو الخز ، والجمع أردان ، والمراد بها هنا : الثياب .

يسوسوه فى أعمالهم ويدبِّروه . والوقتُ مِيزان المصالح ، ومِلاك الأُمور ، ودولابُ[1] الأَعمال .

انْظُرْ جلالَ الْجُمَع ، وتأَملْ أَثَرَها فى المُجْتَمَعُ ، وكيف ساوَتْ العِلْيةَ بالزَّمَع[2] ؛ مَسَّت الأَرضَ الجِبَاه ، فالناس أَكفاءٌ وأَشباه . الرعية والوُلاة ، شرَعٌ[3] فى عتبة الله ؛ خرَّ الجمعُ للمناخِر ، فالصفُّ الأَوَّلُ كالآخِر . لم يرفَع المتصَدِّرَ تصدُّرُه ، ولم يضعِ المتأَخِّرَ تأَخُّرُه .

---

(١) الدولاب : الآلة الدائرة .
(٢) الزمع : الرعاع .
(٣) أى سواء .

الصوم

حِرْمَانٌ مَشْرُوع ، وتأْديبٌ بالجوع ، وخُشُوعٌ لله وخُضُوع لكلِّ فريضةٍ حِكمة ، وهذا الحُكْمُ ظاهرُه العذابُ وباطنُه الرحمة ، يستثير الشفقة ، ويحضُّ على الصَّدَقة ؛ يكسِرُ الكِبْر ، ويُعلِّمُ الصَّبر ، ويَسُنُّ خِلال البِر ، حتى إذا جاع مَنْ أَلِفَ الشِّبَع ، وحُرِمَ المُتْرَفُ أسبابَ المُتَع ، عَرَفَ الحِرْمَانَ كيف يقع ، والجوعَ كيف أَلَمَهُ إذا لذع .

الزكاة

حِزْبُ[١] الاشتراكية ، وحربُ البُلْشُفيَّة .

أَيُّهَا النَّاس :

أَمَرَ اللهُ فَصَلَّيْتُمْ ، ونَهَى المالُ فما زكَّيْتم ؛ فرَّقْتم بين الْخَمْس[٢] وكلُّها حُكْمُ الواحد ، فلكلِّ ألف مُصَلٍّ مُزَكٍّ واحد ! اَستَسْهلْتُم فأَخذتُم ، واستصْعَبْتُم فنبَذْتم ؛ فلو دَخَلَ المالُ فى الصلاة ، لأَقْفَرَتْ منكم مساجدُ الله ! ولو غُرِّم أحدُكم على الشهادة ، لكان به عن نُطقِها زهادة[٣] ! أعَلِمتم أن الزكاةَ قُرُوض[٤] ؟ وأنها وِقاءُ الأَعراضِ والعُروض[٥] ؟ وأنها ليستْ بالعَبَثِ المفروض ؟ هى مالُ الفقير خَلَسْتُموه[٦] ، ورزقُ المحروم حَبَسْتموه ، وحقُّ العاجزِ فى الحياةِ بَخَسْتُموه ، وحُكْمُ اللهِ الذى أَغناكم قد دُسْتُموه ؛ تُقْرِضُون[٧] الولاة ، ولا تُقْرِضون الله ، وتُنفِقون تملقاً لأَهلِ الجاه ، ولا تُنفقون تعلُّقاً بالنجاة .

---

(١) الحزب : النصير .
(٢) المراد بالخمس : أركان الاسلام .
(٣) زهد فيه زهادة : رغب عنه .
(٤) القروض : جمع قرض ، وهو ما أسلفت من إساءة أو إحسان .
(٥) الوقاء : الدرع . والعروض : الأمتعة . والأعراض : مواضع المدح والذم من الانسان .
(٦) خلس الشيء : أخذه مخاتلة .
(٧) أقرضه : أعطاه قرضا .

الحج

مَوْكِبُ الإسلامِ ومَظْهَرُه ، ولُبَابُ حَسَبه وجَوْهرُه . ومَوْسمُه الحرامُ أَشْهُرُه . مِهْرَجانُه العظيم ، وعُرْسُه الفخيم ، ونَدِيُّه[1] الكريم ، والنِّظْمُ الذى قَرَنَ فيه الدُّنيا إلى دِينِه القويم ، فجعَلَه لها صلاحاً وعِمارة ، وَمَلَأَها بِيُمْنِهِ نَماءً ويسارة[2] ، وأفاض بَرَكاتِه على التِّجارة ؛ وسخَّرها لخدمَتِه وإظهارِ دَعْوتِه ، وجَمْعِ كَلِمتِه ، وتَوْثيق عُرْوَتِه ؛ فإذا أَطَلَّتْ أيامُ الحجِّ المبارَكات نظرْتَ إلى البلاد فرأَيْتَ أسواقاً ماجت ، ومتاجرَ راجَتْ ، ومَطايا من مرابِضِها اهتاجَت ، ورأَيْتَ الحِجازَ مُهْتَزَّ المناكب ، يموجُ بالمواكب ؛ مفتَرَّ المباسِم فى وُجوهِ المواسِم ؛ أَخلَفَهُ الغيثُ[3] فمطِرَ الذهب . ويبسَ الزرع فطَعِمَ الرُّطَب ؛ أزوادٌ[4] تُعَدّ ، ورحالٌ تُشَدّ . وشُرُعٌ تُمَدّ ، وحاجاتٌ تنشأُ وتَسْتَجِدّ ؛ وأُمَمٌ أَتَوْا من نواحى البلاد يضعون التُّحفَ المجلوبة ، ويأْخذون الأَجْرَ والمَثُوبة .

فيأَيُّها المعتزمِ حجَّ البيت ، المُشَمِّر لأداء الفريضة . لقد أطعْت ، فهل استطعْت ؟ وأجبْت فهل تأَهَّبْت ؟ وهل

---

(١) الندى : المجلس . (٢) اليسارة : الغنى .
(٣) الغيث : المطر . وأخلفه : لم ينزل به .
(٤) الازواد : جمع زاد : وهو طعام السفر .

علمتَ أن الإسلامَ شِرْعَةُ السَّماحة ، وأن ربَّ البيت واسعُ الساحة ؟ يُعْفِى المريضَ حتى يُعَافَى ، ويُقِيل المُعْدِمَ حتى يجِد ، ولا يؤاخِذُ أخا الدّين حتى يَقْضِيَ دَيْنَه ، ولا يُنْكِر على الخائف القرارَ[1] حتى تأمَنَ السبيل ، من وَباءٍ مهتاج ، أو لصوص قد أخذوا الفجَاج[2] ، أو حُكومةٍ جائرة تَبْتَزُّ الحُجَّاج ؟

كُبْرَى الكبائر أن تلْقَى اللهَ فى بيْتِه وبين وَفْده بمالٍ خَلَسْتَه من أحدِ اثنين يُحبُّهما اللهُ حبًّا جَما : اليتيم — وأنت تعلمُ أن مالَه نار ، وأنَّه نَحْسُ الدِّرهم نُحَاسِىُّ الدينار[3] . والفقير — وقد فَرَضَ اللهُ له فى مالكِ حصَّةً سمَّاها الزَّكاة ، فتغابيْتَ يامُخادِعَ الله ، وخرجْتَ بها تحُجُّ للتظاهر والمباهاة ؛ وهل علمتَ أن اللهَ لا يقبلُ منك مالا ونَفَقَةُ المطلقة ، من مَطْلٍ مُعَلَّقة ؛ وذو القُربى وراءك جائع ، والولَد طريدُ المدارسِ ضائع ؛ وتِجارتُك مُختَلَّة ، وأمانتُك مُعتلَّة ؛ وجارُك الضعيفُ يَضِجُّ من حَيْفِك ، وخصيمُك الأعْزَلُ يَشكو سَطوةَ سَيْفك ؛ فإن لم يكن شىءٌ من ذلك أو مما إليه فَسِرْ على اسمِ الله ، وحُجَّ بيْتَ الله ، وارجعْ بِرِضْوان من الله .

---

(١) المكث فى داره .

(٢) الفجاج : الطرق الواسعة بين الجبال .

(٣) المراد بالدرهم النحس : أنه شؤم على كل من اغتصبه . والدينار النحاس : الذى لاقيمة له لأنه حرام ، والحرام لايدوم .

خطيب المساجد

يامُرشدَ العابد ، ورادّ الهوَى الشَّارد : أعلمتَ أيَّ مقامٍ أُقِمْت ، ولأيِّ بلاءٍ قُدِّمْت ؟ إنما نُدبتَ للوعظِ والإرشاد ، وتعليم العِلْيةِ والسَّواد ، أدبَ المعاش والمعاد[1] ، وخلَفْت الخلفاءَ على تلك الأعواد[2] ؛ الآذانُ لك مَرْهِفَة ، والأذهانُ إليك مُتَشَوِّفة ، فماذا عندَكَ للأتْقياء ، من الأغنياء ؛ ولكُلِّ مُموّل ، فى الصفِّ الأوّل ؛ من إشارةٍ إلى الذهب المدَّخَر ، والقريبِ الضَّجِر ، والوارث المنتظِر ؛ وإلى الخيرِ وجمعيَّاتِه ، والبِّر وقضيَّاته ؟ وماذا أعددْت للتاجر ، من الوعظ الزَّاجر ، تحضُّه فيه على الأمانة ، وتُحَذِّرُه عواقبَ الخيانة ، وتُوصيه بسُمعتِه ضنًّا وصِيانة ؟ أو الذى بذلْتَ للعامل والصانع ، من لفظ رائعٍ ووَعظٍ جامع ، فى السُّلوكِ الحَسَن والدَّعوةِ إليه ، وإتقانِ العمل والحضِّ عليه ؟ وهل ذكرت للعامَّة أن ضربَ النِّسْوة ، ضربٌ من القسوة ؟ وأنَّ البغىَ بالطلاق ، يمقتُه الدينُ والأخلاق ؟ وأنَّ الطفلَ مِن حقِّه أن يهذَّب ، لا أنْ يُضرَبَ ويُعَذَّب ، وأن يُكسَبَ عليه ، لا أن يَكسِبَ هو

---

(١) المعاد : الآخرة .

(٢) الأعواد : الأخشاب . والمراد بها هنا المنابر .

على أبويه ؟ [1] وأن التَّيْسَ لو عَقَل ما اتَّخذَ نعجتين ، فكيف يتزوّجُ الفقيرُ العاقل اثنتين ! ؟ أم أنتَ كما زعموا ببَّغاء لم تحفظْ غيرَ صوت ، تردِّدُه إلى الموت ، كلماتٌ محفوظة ، فى كلِّ مكتوبةٍ ملْفُوظة ، سيفٌ من خشب ، وخطوبٌ فى صورة خُطَب ؟ .

---

(١) المراد بهذه الجملة : أن الآية عليهم أن يعملوا حتى يمهدوا لأبنائهم سبيل العيش والحياة ، لا أن ينتظروا السعى من أبنائهم وهم أطفال .

الطلاق

أزمةٌ تمنعُ أزمات ، وملِمَّةٌ تدفع مُلمَّات ؛ دواءٌ ساء استعمالُه فصارَ هو الداء ، ودِرْعٌ للتوقِّى عادتْ آلةَ اعتداء ؛ نَظْمٌ على غير أُصُولِه مُتَّبَع ، عَبِثَ به الجَهْلُ حتى انقطع . وضاعت على الشارع حِكمة ما شَرَعَ ؛ حلالٌ عليه بَشَاعة الحرام ، وحقٌ يشره[1] إليه اللئام ، ويُكرهُ عليه الكرام ؛ منعَ الله به الظلم ، رأفةً بكم ورحمة ؛ فما بالكم قلبتُم الحُكم ، وعكستم الحِكمة ؛ تختلقون الرِّيَب ، وتُطلِّقون على غضب ، وتُسَرِّحُون بلا سبب ؟

أيُّها الناس : إن كان الكتابُ تسمَّح[2] ، فإن الحديث قد لَمَّح[3] ؛ هَبُوا أن الشارعَ أطلقَ الطلاق . اتكالًا على الدين والأخلاق ؛ أليس الموْقِفُ مَوْقِفَ حَذَر . والمسألة فيها نظَر ؟ أمرُ تبعاته على ضمائركم . وسوءُ استعماله على سرائركم وفضيحة بعضِكم به واقعةٌ على سائركم ! [4] أولئك أُمَمُ النَّصرانيةِ أصحابُ الحضارةِ الحاضرة ، حرَّم الطلاقَ دينُهم ثم حلَّلتْه قوانينهم ، ولكن فى دائرة الحقِّ ووُجوهِ الرفق وبإشرافِ قضاةٍ يَحْمون نُظُمَ الزواج من عبث الخاصة ، وجهالة العامّة .

---

(١) شره إلى الطعام وعليه . امتد حرصه عليه . (٢) تسمح : تساهل .
(٣) يشير إلى الحديث الشريف « إن أبغض الحلال عند الله الطلاق » .
(٤) إذا انتشرت عادة الطلاق فى أمة فليست الفضيحة واقعة على رؤوس المطلقين وحدهم ، ولكن الأمة مأخوذة بها جميعا ، والسمعة السيئة لا تعرف مذنبا من بريء .

البحر الأبيض المتوسط

سيِّدُ الماءِ ، ومِلكُ الدَّأماء[١] ، مهدُ العِلْيةِ القدماء ؛ دَرَجت الحكمة من لُجَجِه[٢] ، وخَرجتِ العبقريَّة من ثَبَجه[٣] ، ونشأَتْ بناتُ الشعرِ فى جُزُره وخُلُجه ؛ بدتِ الحقيقة للوجود من يَبَسه ومائه ، وجَرَّب ناهضُ الخيال[٤] جناحيه بين أَرضِهِ وسمائه ؛ العُلومُ نزلتْ مُهودَها من ثراه ، والفنونُ رَبيَتْ فى حجال رُباه[٥] ، والفلسفة تَرعْرَعَتْ فى ظلِّه وذَرَاه[٦] ؛ « بنتاءُور » وُلِدَ على عِبْرِه[٧] ، و « هومير » مُهِّدَ بين سَحْرِه ونَحْره[٨] ، ونَحَتَ الأَلياذة[٩] من صخره ، و « هيرودوت »[١٠] دوَّنَ مُتونَهُ على ظَهْره ، و « الإسكندرُ » انتهى إليه بفَتْحِهِ ونَصْره .

---

(١) الدأماء : البحر ، وانراد به هنا الماء .

(٢) اللجج — جمع لجة . وهى معظم الماء .

(٣) الثبج من كل شيء : وسطه ومعظمه .

(٤) الناهض : فرخ الطائر إذا نشر جناحيه وتهيأ للطيران .

(٥) ربيت الفنون : أى نشأت ونمت . والحجال : الخدور . الربى — جمع ربوة . وهى ما ارتفع من الأرض .

(٦) الذرا : الملجأ .

(٧) بنتاءور . شاعر مصر القديم . وعبر البحر : شاطئه .

(٨) هومير . أقدم شعراء اليونان . والسحر والنحر . هما الرئة ، وموضع القلادة على الصدر .

(٩) الألياذة : ديوان من شعر هومير ، جمع فيه مفاخر الأبطال القدماء

(١٠) هيرودوت هو المؤرخ المصرى المشهور .

الموسيقى دبَّتْ فى أَحْناء[١] هياكلهِ ،وشبَّتْ فى أَفياء خمائِله[٢] ؛ ثم لم يزَلْ بها تَرسُّلُ[٣] الرُّهْبان ، وترتُّلُ الأَحبار والكهَّان حتى جاوزت الحناجرَ إلى المعازف ، فنَزلت اليراعَ المطرِّبَ[٤] والنحاسَ الهاتف[٥] ؛ لم تخلُ ثُكْنة[٦] من بوق ، أوطبلٍ مدقوق ؛ ولم يخْلُ كوخٌ من يراعٍ مثقوب ، ولا قصرٌ من وتَرٍ مَضْرُوب .

وعلى أَديم الأَبيض المتوسِّط مشى المثَّالُ الأَوَّل[٧] ، وبحجارتِه وقف فتخيَّل ؛ فَلَانَ لبنانِهِ الحجَر ، ودان لمِنْحاتِهِ[٨] الصخَر حتى زيَّنَ الزُّونَ[٩] بالبديع والغريب . ونثرَ الدُّمَى على المحاريب[١٠] وجاء فى الفنِّ بالأَعاجيب ؛ صَنَع أَبا الهوْل ،

---

(١) الأحناء : الجوانب .

(٢) الأفياء : الظلال . والخمائل : جمع خميلة ، وهى مكان يلتف فيه النبات .

(٣) الترسل : الترفق . .

(٤) اليراع : القصب الذى يزمر به الراعى . والمطرب : الذى يرجع الصوت ويحسنه

(٥) هتاف النحاس : ترجيع الصوت فى أبواقه .

(٦) الثكنة : معسكر الجند .

(٧) أديم البحر : صفحته . والمثال — بالتشديد — صانع التماثيل ، ولعل المؤلف أولى من نبه إلى استعمال هذا اللفظ الدفين .

(٨) المنحات : الة النحت .

(٩) الزون : مجمع الأصنام .

(١٠) الدمى : جمع دمية وهى الصورة المزينة أو الصنم المنقوش والمحراب : صدر البيت أو أكرم مواضعه ، والجمع محاريب .

فجاءَ بالهوْل والزَّوْل[١] ؛ كان ذلك حينَ سائرُ المعمور مجاهل والناسُ جُهَّال ؛ عالَمٌ غافل ، يَهيمُ فى أَغْفَال[٢] .

فيا ناشىءَ الكِنانة :

إذا وقفتَ على لجَّة (الرمل) ، أَو نقَلتَ القدمَ على رملة (المكْس) ؛ فى أَصيلٍ لدَّتْ حواشيه ، وحلَّى جِلْبابَهُ بالذَّهب واشيه ، وفضاءٍ آصفرَّ من نَعىِّ الشمس ضاحيه[٣] : وقُرِّبَتْ لها الأَكفان من زَعْفران نواحيه[٤] ، فتبصَّرْ ! هلْ ترى غيرَ ساحلٍ طيِّب البُقْعَة ، وأَديمٍ جيِّدِ الرُّقْعَة ؟ وهل تُحسُّ غَيْرَ بحر ضاحك الماء ، مُتَهلِّلِ السماء ، حُلْوٍ بشاشة الفضاء ، يصحبُ الصَّحْو ، ويَسحَبُ الزهو[٥] . ويلهو وما عرفَ اللَّهْو[٦] ، وخريرُهُ تسبيحٌ وما هو بِلَغْو[٧] ؟

---

(١) الزول : العجب .

(٢) الأغفال : جمع غفل . والأرض الغفل : التى لم تنصب عليها علم ولم تقم عليها عمارة .

(٣) ضاحية . ظاهرة وباديه . ونعى الشمس : مجاز يراد به غروبها . واصفرار الفضاء لنعى الشمس استعارة شبهت فيها الشمس بميت ، وشبه الفضاء بمن أصيب فيه ، فاثتابه من صفرة الروع ما يثتاب الثاكل المرزوء .

(٤) الأكفان من زعفران : كناية عن صفرتها ، ولا يزال المؤلف مستمرا فى مجازه الذى ابتدأه فى الجملة السابقة .

(٥) الزهو : العجب والتخايل .

(٦) لهو البحر : تلاعبه بما على صفحته من السفن .

(٧) اللغو من الحديث : الباطل . والمراد بتسبيح الخرير : ما يلقى فى النفس من أثر اليقين فى صوته العجب .

لآبائكَ عنده ـ مُنذُ ماجت أمواجه . ولجَّتْ لجاجُه[١] ، وهدَرَ عَجَّاجه[٢] ، وأنشىءَ للرِّياحِ شِراعهُ وساجهُ[٣] ـ جِوَارُ الأكرمين ، وصحبةُ المحسنين ، وكَنَفُ السَّماحِ الخيِّرين : شمسٌ متوقِّدَة ، وطبيعةٌ مُتَوَدِّدَةٌ ، ولُجَّةٌ غيرُ مُتمرِّدة . وغَيرُه من البحار ذميم الجِوار ، لئيم النِّجار[٤] ؛ ضبابٌ مُخيِّم وسحابٌ مُدَيِّم[٥] ؛ أعاصيرُ مُرسَلَة ، وصواعِقُ مُنزلة ؛ زمنٌ مُضطَرِب الفُصول ، وطبيعةٌ تَختلِفُ وتحول ، كما تَلوَّنُ فى أثوابِها الغُول[٦] .

تلكَ اللُّجَّة ـ أيها الناشئ ـ هى من أوطانِكَ عُنوانُ الكتاب ومِصْراعُ الباب ، ووجهُ الخميلة ، وظاهِرُ المدينة ، وعَوْرَةُ الحصْن ؛ وإنَّ قوماً لهم على البحرِ مُلْك . وليس لهم فيه فُلْك : لَقَوْمٌ دُولتُهم واهية السِّلْك . وسلطانهم وإن طال المدَى إلى هُلْك !

ويأيُّها الأبيضُ الأغرُّ سلام ، وإن أنزَلَتْنا عن صَهْوَتِكَ

---

(١) اللجاج : جمع لجة وهى معظم الماء .

(٢) العجاج من الماء : ماسمع له عجيج .

(٣) الساج : شجر عظيم ينبت فى الهند ، وخشبه جيد أسود لايكاد الأرض تبليه ، والمراد به هنا : ما يصنع منه من سفين

(٤) النجار : الأصل .

(٥) سحاب مديم : أى ممطر .

(٦) تلون : أصلها تتلون ، ثم حذفت التاء للتخفيف . والغول : من يتلون ألوانا مختلفة من الجن والسحرة .

الأَيام . وأَبدَلتْنا من سلطانك الخافق الأَعلام ، بممالكَ من كلام ، ودُوَلٍ من أَمانىّ وأَحلام ! وياعَرْش الأُبُوَّة ثناء ، وإن ثلَّك الأَبناء ، ثم لم يُحسِنوا البناء ؛ أَين دُوَلٌ كانتْ مطالعَ أَنوارك . ومعاصم سُوارك ، وما الذى نأَى بجَواريها[١] عن جوَارك . وهوى بسواريها[٢] فى أَغْوارك ؟ أَين الفراعنة وماجدَّفوا منبُروج مشيَّدة[٣] ، والبطالسة وما مدُّوا من شُرُعٍ كالصُّروحِ الممرَّدة[٤] ؟ وأَين الشَّوْنات الأَيُّوبيَّة[٥] . والبوارج العَلَويَّة[٦] ؟ هيْهات ! أَزْرى الدَّهر بالإسكَندريَّة ، فحجَبَ ذلك المَنارَ[٧] ونصبَ هذا الفنار . وأَين الليلُ والنهار وأَين الظلماتُ من الأَنوار ؟ ذلك كان أَضوأَ هالة[٨] ، وأَسْطعَ على التمكُّنِ فى الأَرضِ دَلَالة ، وأَضْفَى على مناكب البَرِّ والْبَحْرِ جلالة ؛ يهتدى به الداخِلُ والخارج ، ويستأْمِنُ الدابُّ فى حِماهُ والدارج ، وتنيفُ[٩] عليه البُروجُ وتطيفُ

---

(١) الجوارى : السفن .

(٢) السوارى : عمد ينصب عليها الشراع .

(٣) البروج المشدة هنا : يراد بها السفن الضخمة . والتجديف : تسيير السفن بالمجداف .

(٤) التمرد : القلوع . وتمريد البناء : تملسه وتسويته .

(٥) الشونات : هى سفن الحرب ، وقد كان لبنى أيوب منها أسطول عظيم .

(٦) التى أنشأها محمد على باشا جد الأسرة المالكة .

(٧) المنار : الذى أقامه البطالسة فى الاسكندرية فكان سراجها الوهاج .

(٨) هالة القمر : دارته . والإشارة هنا للمنار .

(٩) تنيف : تشرف

به البوارج ؛ وهذا[١] سراجُ بَيْت ، وذبالة زيْت ، وشعاعُ كنَفَسِ المحتَضَرِ حيٌّ مَيْت !

مُلْكنا الواسِعُ منورائه بابٌ ولا بوّاب ، وسُدّة ولا حجاب غابٌ ولا ناب[٢] ووكْرٌ ولا عقاب ! تعاقَبَتْ عليهِ حُكومات ألقت السِّلاح ، وألْغت الإصلاح ؛ تقول فتَجِدُّ وتعملُ فتهزِل ، ولا تُحسنُ من سياسَة المُلْكِ غيرَ أن تولّى وتعزل ، وتَجبي القطنَ ولا تفكرُ فى المغْزل ! تخايلُ بالبحْرية والوزير وتأتى قبلَ الماء بالزبر ! ! .

---

(١) الاشارة للفنار الموجود الان .

(٢) الناب : يطلق على الأسد ، من تسمية الكل باسم جزئه .

صفة الظبي

عروسُ البيد . الفاتن كالغيد . بالمقلة والجيد ، الفروقة الرَّعديد[١] وصفته فقلت : عينان سوادُهما داج ، وبياضُهما عاج ، وإنسانُهما حائر ساج ، فى رأس كأنه قدم الكَعَاب . أو كأنه خزفٌ من الأكواب ، رُكِّب فى عنق كإبريق الشراب وله روقان . كأنهما نَصْلان صَدِئان ، وكأن إبرتيهما مِرْود[٢] انتشر عليه الأثمد[٣] ، وكأن قوائمه السمر الخفاف . وكأنّ زجاج أرماحِها الأظلاف . كل ذلك فى إهاب أغبر اللون كَدِر ، كأنه الثوب السوىّ المُنْقَدِر ، ليس بفَضْفَاض ولا بالمُنْحَسر ؛ وإذا عَدَا فَسَهْم ، وإذا أخذه المدى فَوَهْم ؛ وثباتٌ تنتظم الربوةَ والحفرة ، وتُثْبت وجودَ الطَّفْرة . وإذا قام على ظِلْفيه ، وأرهف للرياح حرتيه[٤] . وشرع فى السماء روقيه ، خطْتَهُ دُمْية مِحْراب ، أو شُجَيْرة عليها تُراب .

---

(١) الفروقة الرعديد : الشديد الفزع الجبان .
(٢) المرود : الميل الذى يكتحل به .
(٣) مسحوق الكحل .
(٤) أى أذنيه .

صفة الأسد

طاغيةُ الصحراء ، وجَبَّار العراء ، وأجرأُ من وطِئَ الغبراء عَرْشُه غابته ، وحجابه مهابتُه ، والوحدة مجلسه وصحابته ؛ ابنُ الصحراء البكر نحتت أجلاده من صخرها ، واسترقدت بأْسُه من حَرِّها ، وطبعته على انقباضها وكبرها ، وكأَنَّ[١] الصُّورَ حنجَرَته ، وكأَنَّ نفخة الصور زَمْجَرَتُه ؛ إذا سمعت خفتت[٢] العقائر[٣] . ولاذت الهوامّ بالحفائر ، وطار الواقع ووقع الطائر . وَصَفْتُه فقلت : هامة من أضخم القمم[٤] . جلست على المنكب العمم[٥] ، ولبست تاج الشهرة فى الأمم ؛ وراء الهامة غفرة[٦] كأنها اللامة[٧] ، هى اللبدة وهى عمامة أُسامة[٨] ؛ دارت على وَجْهٍ كوجه الموت بادى الشُّرَّة ، منقبض الأَسِرَّة ؛ ذى جبهة مغبرة ؛ كجبهة القتال مكفهرة ؛ وكأَنها صفحة السَّيْف ؛ تلقى الحتف دون الْحَيْف ؛ فى الجبهة عيان

---

(١) الصور : القرن الذى ينفخ فيه يوم البعث .
(٢) خفتت : سكنت » .
(٣) العقائر : الأصوات .
(٤) القمم — واحدها قمة : وهى أعلى الرأس
(٥) العمم : التام الهيئة .
(٦) غفرة : اللبده .
(٧) اللامة : الدرع .
(٨) أسامة : علم جنس على الأسد .

كاللهب ؛ فى حجابين[١] كالحطب ؛ بينهما أنف غليظ. القصبة . منتشرُ الأَرْنَبَة ؛ كأنه الأفعوان افتَرَش الْحَجَر ؛ أو اضطجع فى هشيم الشَّجَر ؛ حول الأنف كلحة[٢] كأنها خزانةُ أسلحة ؛ إذا انطبقتْ فعلى كوامن الغيوب . وإذا انفتحت فعن القضاء بارز النُّيُوب ؛ ومن عجب الخلق رأسٌ كأنه صخرة ، أوكأنه أُرُومة يابسة نَخِرة ؛ ينهض به ساعد جدل[٣] ، لاهزيل ولا عبل ؛ كما تنهض أسطوانة الحديد على قلتها بالكثير الضخم من البناء ؛ وللأسد كفٌّ كأنها المدجج[٤] ، أو كأنها الحجر المدمج « إذا مَسَّت قفار الفرس قطعت نظمه ، ونَثَرَتْ لحمه وعَظْمَه »[٥] كل ذلك فى إهاب أَغْبَر ، وجلباب أَكْدَر . كأنما صُنِعا من القَفْر أوقُطِعا من الصَّخْر ، أو كأنما كُسِيا لون الصحراء كما تكسى البوارجُ لَوْنَ البحر ، وإذا قام على برثنه[٦] فتمثال ، وإذا انقضَّ فهضب منهال ؛ وإذا تراءى بالسهل فدعامة ، وإذا طلع من الحَزْن فَغَمامة .

---

(١) الحجابين : عظما الحاجبين .
(٢) ألكلحة : اللحم حوالية .
(٣) الجدل : الحسن الفتل .
(٤) المدجج : القنفذ .
(٥) هذه الجملة عن (لاروس) الكبير .
(٦) البرثن : المخلب .

الأسر في حديقة الحيوانات

ياجارَ الجيزة وأسير الحديقَة ، سَرَت الهُمومُ فلم نَنَمْ ، أَرَّقَتْنى شؤونٌ وشجون ، وذكرياتٌ مما تَرَكتِ السِّنُون ، وأَرَّقَكَ حَزَّ القيد ، وضَغْط الحديد ؛ وأثارَكَ ذكرى الصَّيْد ، والحنين للبيد ؛ سبحان المعزّ بالحرية المذل بالرّق ؛ ما أَرَقك بالأَسحار وكان غَطيطُكَ أَرَقَ الصَّحَار[١] ، وفَرَقَ[٢] السُّمَّار[٣] فى الأَكوار وما بالُ زَئيرك ينام عليه الطيرُ ملءَ جفونِهِ ، ولا يتحرَّك له ليلُ الجيزة من سُكُونِهِ ؛ أصبح أقلَّ من النُّباح وأذلَّ من النِّياح ؛ وكان بالأمس يُرْعِدُ البطاح ، ويُسقِطُ من يد البطل السلاح ؛ وأين أبا لِبْدَة طلعةٌ كانت تَعقِل الفرس والفارس فأصبحَتْ يدعو العيون إليها الحارس ؛ يُطيفُ بها النَّشَأُ[٤] ولا تخيف الرشأَ . عزاءً مَلِكَ البيد ، ابنَ الفاتك الصِّنديد ؛ وأبا الخالة[٥] الصَّيد ؛ وإن لم تَزِدنى علماً بالدُّولة كيف تزول ولا بما عند الناس للنعمة المنكوبة ، والبطولة المقهورة ؛

---

(١) الصحار : واحدها صحراء .

(٢) الفرق : الخوف .

(٣) السمار : أى المتسامرين فى الرحال .

(٤) النشأ : الأحداث .

(٥) الخالة : المتخايلون من الخيلاء .

والأخلاق المخذولة ، والعروش المثلولة ، فقَبْلَك ضاقتْ «أغمات» على سجينها . وأخنتْ «أميرجُون»[١] على قطينها[٢] وأضرَّت (القديسة هيلانة) برهينها[٣] . أجوادُ نزل بهم الدَّهْر ، وأحرارٌ أناخ عليهم الأَسر ، وأملاكٌ[٤] جرى عليهم النهى والأَمر ؛ وأنت فى صَحَارك أطولُ فى الملك بنياناً ، وأعرض فى الأَرض سلطاناً ، وأوسع شهرة وأنْبَهُ مكاناً ؛ عرشك أبا الأَشبال . على السهل والجبال . وكل داب[٥] على الرمال . رعية لك أو مال ؛ تمثال القوة ، ومثال المروَّة ؛ نَفْسٌ بهيمة . وأخلاق عظيمة ؛ ألست أبا لِبْدَة تحمى العرينة . وتُحْسِن عشرة القرينة . وتبنى الذُّرِّيَّة المتينة ؛ وتعفُّ عند الشِّبَع . وتفضلُ على التُّبَع ؛ وتذهب مذهَبَ الأَقمار . فتطلع بالليل وتستترُ بالنهار ؛ ولك قبل البطش جلجَلَة[٦] منذرة ؛ وبهنسةٌ[٧] مَحذِّرَة ؛ وغيرك فى

---

(١) أميرجون : قصر الخليفة الموحدين فى منفاه بالاستانة .

(٢) القطين : الساكن .

(٣) رهينها : يعنى به نابليون .

(٤) الأملاك : جمع ملك .

(٥) داب : ساع .

(٦) الجلجلة : الزئير .

(٧) البهنسة : النمر .

السباع خَتَلَ[١] وخَتَر ، وجاء القَرَن[٢] على خمر[٣] من أجل هذا ومثله فى الأخلاق ضَرَبت الأُممُ بك الأمثال ، ونحتوا على صورتك التِّمثال . واستعاروا أسماءك للأبطال وأشباه الأبطال حتى قيل للإخشيدى[٤] : أسد القلب ، وقيل للصليبى[٥] : قلب الأسد ، شُبِّه بك كلُّ شجاع ولم تُشَبَّهْ من الشجعان بأحد ؛ عطف بقلبى على صغارك أبا الأشبال ، أنهم كصغارى ولدوا فى الرق وشبوا على مسِّ هوانه ، كلا النشأين مغلوبٌ على دياره ، مَرْزُوء بالتشريك فى وجاره[٦] ، مغامرٌ فى صحراء الحياة بغير أظفاره ؛ وألان لك فؤادى أبا لِبدة هذا الذلُّ بعد العز . وهذا الرسف[٧] فى الضيق بعد المَرَح فى السِّعة ؛ واستأْوانى قيدُ الحديد ، بعْد تاج البيد . وما أسفى والله على ظُفرك المقلوم ، ولا على نابك المحْطُوم ، فإنى وجدتُ البغىَ ليس يدوم ؛ ولَسْتُ أُنكِر عليك شدّة لم ينكرها الناس على الحضارة

---

(١) ختل وختر : أى غدر .

(٢) القرن : الخصم .

(٣) على خمر : على غفلة .

(٤) الاخشيدى . هو كافور . وقوله « أسد القلب » هو من قول المتنبى :
* أسد القلب ادمى الرواء *

(٥) الصليبى : هو ريشار ملك انكلترا الملقب بقلب الأسد .

(٦) الوجار : جحر السبع ، والمراد به هنا الوطن .

(٧) الرسف : مشى القيد .

وهم يروْن ظُفْرَها يقطر من دم الجبل[١] ، ويَرَوْنَ نابها يَقْطُر من دم الريف[٢] ؛ وإنما أَسَى أبا الأشبال على تلك الشخصية المتظاهرة ، وتلك الروحية القاهرة ؛ وعلى حضْرَة كأنها مجلس الحكم ، ونظْرَة كأنها الأمر النَّافذ ، وعلى صيحة تأْتيكَ بالصَّيْد مشكولًا ، متهيئاً من نفسه مأْكولا ؛ أدوات زعامة ، وآلات سيادة ؛ مما يهب الله لأفراد البشر أحياناً . ويُلْقى على آحاد الرجال آناً فآنا ؛ فإذا هم القامة والسادة . وإذا الأُمم تأتيهم منقادة ، وقد زادك الله عليهم رعيةً سُلِبَتْ منها العقول ؛ فاسترحت من الرأى وصراحته . والفكر وشجاعته ، والمبدأ وصلابته ؛ وكُفِيتَ سيوفاً بيْنا هى لك ، إذا هى عليك ؛ وأقلاماً مأجورْها أسيرك ، وطليقها أنت أسيره ؛ أعلمت أبا الأشبال إلى أى الآجام نُقِلْت . وفى أى الآطام اعْتُقِلْت ؛ أسمعتَ عن أسَدٍ نَجَمَ[٣] . فى هذا الأجم ، وضرغامةٍ غاب ؛ عن هذا الغاب ، أذلَّت الحوادث بالأمس عرْنينَه ، واحتلت الخطوب عَرينَه ، وعطَّلَتْ نكبتُهُ الدنيا من زينَة ، وغادَرَتْهَا بَعْدَ فَرَح حزينة ؛ وكان أكثر من

---

(١) الجبل : هو جبل الدروز .

(٢) الريف : هو وطن عبد الكريم وقومه .

(٣) نجم : ظهر . والمراد بالأسد هنا : الخديو إسماعيل .

آبائك أسماء ، وأطول من عشيرتك فى العز سماء . وأمنع وادياً وأعزَّ ماء ؛ منعكم القرارَ بالصحراء صهيلُه[١] ، وخلَفَ زئيركم عليها صَليلُه[٢] ؛ وغلبكم على أطرافها فكل ماءٍ بها ماؤه ، وكل يبس غيلُه ؛ وكانت هذه الحرجات[٣] تحته أجَمَةَ الأغلب الهصور ، وكانت نَظْماً من قصور ، لم ترَ أمْثَاله العصور ؛ فلا (الجعفرى)[٤] حكاه . ولا (الزهراء)[٥] أعطِيَتْ حُلَاه ، ولا الإيوان ساواه ، فى شَرَفه وعُلَاه . وكانت هذه الجنات وَشْيَ دوره ، وحِلْيَ قصوره . وكانت هذه العيون محاجر العين من حُوره ، ومعاصم ريمه ويعفوره[٦] ؛ وكانت الساحة . سماءَ الندى وأرضَ السماحة ؛ جناتٌ وقصور ، ونعيم وحُبُور . وعِينٌ حُور ، يطأُن المسك والكافور ؛ مرمرٌ راع مسنونه بلقيس[٧] الزمان ، فكشفَتْ عن ساقَيْها بين يَدَىْ سُلَيمان .

---

(١) صهيله : أى صهيل خيله .
(٢) صليله : أى صليل سيوفه .
(٣) الحرجات : الخمائل .
(٤) الجعفرى : قصر المتوكل .
(٥) الزهراء : قصر الخليفة الأموى بالأندلس .
(٦) اليعفور : الظبى .
(٧) يشير ببلقيس : إلى الامبراطورة « أوجينى » نزيلة هذه القصور بالأمس

الجمال

جَمَعت الطبيعة عبقريَّتها فكانت الجمال ، وكان أحسنَه وأشرَفَهُ ماحلَّ فى الهيكل الآدميّ ، وجاور العقلَ الشريفَ والنفسَ اللطيفةَ والحياةَ الشاعرة ؛ فالجمالُ البشرىُّ سيدُ الجمال كلِّه . . . لا المَثَّال البارعُ استطاع أن يخلعَه على الدُّمَى الحسان ، ولا للنِّيرات الزُّهْر فى ليالى الصحراء ماله من لمحةٍ وبهاء ، ولا لبديع الزَّهر وغريبة فى شباب الربيع ماله من بشاشةٍ وطيب . وليسَ الجمال بلمحة العيون ، ولا ببريق الثغور ، ولا هَيَفِ القدود ، ولا أسالة الخدود ، ولا لؤلؤ الثنايا وراء عقيق الشفاه ، ولكن شعاعٌ عُلْوِىٌّ يبسُطُه الجميلُ البديعُ على بعض الهياكل البشرية ، يكسوها روعةً ويجعلها سحرا وفتنةً للناس .

الأمومة

الأُمومة هى رسالةُ المرأة على هذه الأرض وشأنُها الأوّل فى الحياة ، وهى حجرُ الأساس فى الأسرة ، وقواعدُ المجتمع وأركانه منذ قام إلى يوم ينفض . وفى الأُمومة اجتمعت خلالُ البرّ ونوائبُ الحق وتبعاتُ الواجب ، وصورُ البطولةِ وفضائل الإيثار ، ومواطن الصبر الجميل . وكأنّ الأُمومة فى البيت الملكة فى الخلية أو العذراء فى البيعة : فيا أيتها الفتاة المُدِلّة بصباها ، المزهوّة بحسنها ، المترقبة من ورائهما لذة الحب وفيض السعادة : اذكُرى أن الجمال حُرٌّ طليق إلا من قَيْدَيْن كلاهما أجمل منه : الشرفُ ؛ والعَفاف ؛ إذا انسلَّ منهما عَثُرَ فى خطاه الأُولى ، وذَوَى فى إبان النضرة . وسَلِى ذواتِ الشَّعر الأبيض ممن حَوْلك من غوانى أمس : هل دولة الحسن إلا كدولة الزَّهَرْ . وهل عُمر الصِّبا إلا أصيل أو سَحَرْ . وهل غيرَ الأُمومة تاجٌ للمرأة تلبسه من مختلف الشعر ألوانا .

جمالُ الأُمومة لمحةٌ من جمال الحياة ، وشعاعٌ من عبقريّتها وهوَ أحفلُ أياماً ، وأطولُ مقامًا ، وأصدق أحلاما .

حُبُّ الأُمومة أَشْهُرٌ وسنون ، وبناتٌ وبنون ، وأشغال وشئون ويبقى مع الثُّكل ، ويتَّقد عند حَشْرَجة الصَّدر ، ولا يَنْطَفئُ إلا بانطفاء القلب .

لذةُ الأُمُومةِ معنى قُدْسىٌّ وسرٌّ خفىٌّ ، وحَال كمناعم الخلد ولذاته ، ليسَ منا إلا من قرَأَه فى تلكَ العيون التى رَعَتْنا فى المهود صغارا ، وسهرَتْ علينا فى فراش المرض كبارا .

الكاتب العمومي

تِمثالٌ من الجهل العام صنعتهُ القرونُ والأجيال ، حفَّاره عبث الحاكم ، وطِينَته غفلة المحكُوم ، وهُو الأُمِّية على قارعة الطريق . لايجمعه والحضارة مكان .

الحياة وهم ولعب

الحياة توهُّم ، عِشنا بالوهم الزَّمنَ الرغد ، وعِشنا بالوهم الزمن النكد ؛ طافَ بنا الوهم على السعادة أحيانا . ومرَّ بنا على الشقاء آناً فآنا ؛ وبالوهم عادَيْنَا وبالوهم والَيْنَا . وبالوهم مرضنا ، وبالوهم تداوَيْنَا ؛ حتى إذا جاءت سكرةُ الموْت كانَ ذلك أوّل العهد بالحقِيقَة ؛ والحياة لعب . قضينا الطفولةَ باللعبِ ، وقَطَعْنا الشَّبابَ مَلاهيَ وملاعب . ولعبنا فى ظلِّ المشيب ؛ حتى إذا جاءت سَكْرَةُ الْمَوْت ؛ كان ذلك أولَ العهد بالجِدِّ .

العلم

شعارُ الأُمم وفخارهم ، اتخذ الناسُ فى شَبَابِ الدولِ الأَعلام ولا يزالون فى ظل هذه الحضارة الكبرى يبلغُونَ فى محبة العَلَم وإجلاله إلى التقديس ، فهو — حيث يخطُر وحيث يخفق — شبحُ الوطن المنظور ، وماضِيهِ المنشور ، وتاجُ الرءُوسِ كُلِّها ، وقِبْلَةُ الوجوه جميعاً ؛ إذا نُشِرَ فى السِّلْمِ خلع على أيامها الجمال وكسا مواكبَها المهابةَ والجَلَال ؛ وإذا رُفِعَ فى الحرب كانَ نَظْمَ الصفوف وأُلْفَة القلوبِ ومَثَار الحماس وداعىَ التضحية ، وسحب النسيان على الأَحقاد ، وحسم ما اشتهته الأَعاد . منديلٌ طالما رُفع على أيدى الآباءِ فكفكفوا به دمع الحزن ، وتلقَّوْا فيه دمع الفرح . ضحكوا وراءَه كثيراً فى نصيبين وقعدُوا حوله فى عرس . وبكوا حوله كثيرا فى التلِّ الكبير وقاموا وراءَه فى مأتم .

فيا أَيُّها العَلَم الأَخضر كديباجة السِّلْمِ أَو كظِلال الخِصب : المستعير الهلال غزّة ، المفَصَّلُ بنجوم السعد ، الموسوم بالحضارَة مِن عهد خوفو ومينا ، المُحَلَّى بالفتح مِن زمَن ابن العاص ، النابه الأَيام والوقائع بين يدى إبراهيم ، لا زلتَ تُرْفع لِمَجْد . ولا زالت الأَجيال تتلَقَّاك يميناً ، ولا نُشرتَ إلا فى حق ؛ ولا طُوِيتَ إلا على حق .

ويا ابن مصرَ على قَدَم ؛ حيَّ العَلَم !

السجع

السجعُ شِعْرُ العربية الثانى ، وقوافٍ مرنة ريِّضة خُصَّتْ بها الفصحى ، يستريح إليها الشاعر المطبوع ، ويرسل فيها الكاتب المتفنن خياله ، ويسلو بها أحيانا عما فاته مِن القدر القدرة على صياغة الشعر ، وكل موضع للشِّعر الرَّصين محلٌّ للسَّجْع ؛ وكلُّ قرار لموسيقاه قرارٌ كذلك للسجع ؛ فإنما يوضع السجعُ النابغ فيما يصلح مواضع للشعر الرصين ، من حكمةٍ تخترع ، أو مَثَلٍ يُضْرَب ، أو وصفٍ يساق ؛ وربما وشِّيَتْ به الطوالُ من رَسائل الأدب الخالص ، ورُصِّعتْ به القصار من فِقَر البيان الْمَحْض ؛ وقد ظلم العربية رجالٌ قَبَّحُوا السجع وعدُّوه عيباً فيها ، وخَلَطوا الجميل المتفرّد بالقبيح المرذول منه : يوضَع عنواناً لكتاب ، أو دلالة على باب ، أو حشوا فى رسائل السياسة ، أو ثرثرة فى المقالات العلمية ؛ فيانَشْءَ العربية ، إن لغتكم لسريَّة مثرية ؛ ولن يَضِيرَها عائبٌ ينكرُ حلاوة الفواصل فى الكتاب الكريم ، ولا سجع الحمام فى الحديثِ الشريفِ ، ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح .

النقد

فَنٌّ قديم كريم وتالد من رأس مال الحضارة فى علوم الأدب وفنونه تَوَارَثَهُ الأواخر عن الأوائل فأخذته حضارتُهم فحسَّنته على عادتها ؛ وضَخَّمَتْ كتابَهُ ووَسَّعتْ أبوابهُ وهذَّبت أصوله وَوَضعتْ قيوده ، حتى صار مِن دعائم الصحافة وأضحى ظل التأليف ومعرض العبقريات ومرآة آثارها فى مسائل الأدب وشتى مطالبه ؛ والنَّقدُ حارسُ الأدب ومكمِّلُ الكتَّاب والكتب ، وهو آلةُ إنشاءٍ وعُدَّة بناءٍ . وليسَ كما يزعمُهُ الزاعمون معْوَلَ هَدْم ولا أداة تحطيم .

والناقد مُستهدفٌ يعرضُ عقله وبضاعته وخُلُقه وحكمه على الناس . وربما ارتدَّ مِعْوَلُه إليه كما يرتدّ سلاح البَغْى إلى صاحبه فهدمه على المكان ، والناس يرون وهو لايرى من سَكرة الغُرور ، ومَنْ نقد على غضبٍ أسْخَطَ الحقَّ . ومن نقد على حِقْدٍ آحترق وإن ظنَّ أنه حَرَقَ ، ومَن نقَدَ على حسدٍ لم يَخْفَ بغيُه على أحد ، ومَن نقَدَ على حبٍّ حابى وجمح به التَّشيُّع

النهضة

صُورةُ الرِّقَّةِ ورمزُ العاطفَة وهيكل الخير والحب والجمال.
قديما أولع بها الناس وقديماً ظلموها ؛ أما هي فطالما ملأَتْ حدائقَهم بهاءً وحسنا ، وحُجُراتهم زينةً وطيباً ؛ وجمَّلَت عُرْى ثيابهم وحَسَّنَتْ أعراسهم وولائمهُم ؛ فكانت منصَّة للعروس وإكليلًا ، وشارة للمائدة ومنديلًا . وسفَرت بين العشَّاق فَحسُنَتْ رسالةً ورسولًا . . . وأماهم فما أشد ماجَنَوْا عليها ! فَطَمُوها عن عُصَارَة العُود ، وفجعوها فى وثير المهُود ، وأَبْدَلوها مِن طول الفضاءِ وعَرْضه بالبواطى الضيقة ، ومن سماءِ الروض وأَرضه بِالجدران المزهقة ، ومِن ماء العيون بماء الجِرار ؛ ومِن شعاع الفضاءِ الطَّلْق بشعاع النافذة والكوّة... ظلمٌ عبقرىٌّ ؛ وإحسان ، جُزِىَ بغَيرْ إحسان .

الساقية

أَصَوْتُ السواقى فى سماءِ الليلِ وعلى فضاءِ الريفِ ، أَم تنغيمُ الملائكة فى الأَراغيل ؟ أَمْ خُوَار الثَّوْر خَرَج مِن الأَرض وقدْ أَخذه الضجرُ ، وناءَ قرناهُ بذنوبِ البشَرِ ؟

نَغَمٌ كالنفخ فى الغاب ، طبيعةٌ قادرةٌ ساحرَةٌ لها فى كل شىءٍ موسيقى حتى فى الليفِ والخشبِ . فياقَيْنَةَ الأَجيال ، داهذه الدمُوعُ الفوَاجر التى لم تُعْرَفْ مِن شئون ولم تَرْسلها محَاجر ؟ وما هذه الضلوع الهاتفة بالشكْوَى ، الصارخةِ مِن البلوى ، وما عَرَفَتِ الْهوَى . ولاباتت ليلة على الجَوَى ؟ حدِّثينا عَن القرون الأُولى ، قُرُون خُوفُو ومينا ...

الشيخ المهدم

أَيها الشيخ المهَنْدَمُ المقَذَّذُ : ماغَرَّكَ بالسِّنِّ حتى لبستَ للصِّبَا ثيابه ، ونازعْتَ حفيدَكَ شَبَابه ، إنما مَثَلُكَ فى هذا البريق المزوَّر وهذه النضارة المُصْطَنَعة ، كَمثَل الضِّرْس المحْشُوّ المكسُوّ ، نُزِعَ منه العَصب ، وخُلِعَ عليه الذهب .

خواطر

مَنْ بَغَى بسلاح الحقِّ بُغِيَ عليه بسلاح الباطل

*

قُبِّح الدَّيْنُ نطق فَفَضَح وسكت فَفَدح

*

يستريح النائم من قيود الحياة كما يتروّح السجين ساعةً في فِناءِ السجن

*

مانبَّه على الفضل الكاذب ، مِثْلُ الثناء الكاذب

*

نخوة الكلب من الراعى ، ومَنَعة الديك من السطح

*

إذا بالغ الناس استعاروا للهرّ شوارب النمر

*

قضاءُ السماءِ بقضاءِ الأَرض اختلط ، وهذا معصوم وهذا عرضة للغلط

*

الفضائل حلائل ، والرذائل خلائل

*

هلكتْ أُمّة تحيا بفرد وتموت بفرد

*

في الغمر تستوى الأَعماق

*

فراش المُتْعَب وَطِئ ، وطعام الجائع هنئ

*

تغطى الشهرةُ على العيوب كالشمس غطَّى نورها على نارها

*

للرياسات أذناب ، فلا يكن ذَنَبُك كذنبِ الطاووس فيذهب ببهائك كله لنفسه ، ولا كَذَنَب الفأر فينقطع عنك عند العسل ، ولا كَذَنَبِ النجم فيصبغك بنحسه

*

من عَجَزَ عفَّ . ومن يئس كفَّ . ومن جاع أَسَفَّ

*

الأُمَمُ بنيان الْهِمَم

الصالحون يَبْنُون أنفسهم ، والمُصلِحون يَبْنُون الجماعات

*

المدرسة تُعلِّم ولا تحلّم ، والحياة تحلّم وتُعلم

*

المتحيز لا يُميِّز

*

عاش العالم فمات ، ونَفَق الجاهل كالسائمات

*

الخاصة أذوق لحكمة البيان . والعامة أذوق لحكمة الألحان

*

المال عُرْضة للآفات فلا تتعجَّلوها بالسرف

*

وَلَدُ البخيل مرحوم ، وولد المبذر محروم

*

الثقيل جَبَل إذا تلطَّفَ سقط

*

يَدُ القاتل حمراءُ تنمُّ عليه فى الدنيا وتشهد عليه فى الآخرة

*

آسِ ثم انْصَحْ

*

ربما تقتضيك الشجاعة أن تَجْبُن ساعة

*

الخير فيه ثوابه وإن أبطأ ، والشرُّ فيه عقابه وقلما أخطأ

*

الخير تنفحك جوازيه ، والشرّ تلفحك نوازيه

*

عليك أن تلبس الناس على أخلاقها ، وليس عليك ترقيع أخلاقها .

*

العتاب رفاءُ الودّ

*

لاسلطانَ على الذَّوْق فيما يُحبّ ويكره

*

ذَنَبُ الطاووس رفع له رأسا ، وذَنَبُ النجم جرَّ له نحساً

*

الغَنِىُّ مع الفقير فى كَبَد ، إذا منعه حَسَد وإذا أعطاه حَقَد

*

النصح ثقيل فلا تجعله جَدَلا ، ولا ترسله جَبَلا

*

الروح اللطيفة تستشفّ ، والنفسُ الشريفة تستشرف ، والضمير النقىّ مرآة ، لو التمس فيها المرءُ وجه الغيب لرآه

*

رُبَّ قارض للأعراض ، وعرْضُهُ بين شِقَّىْ المقراض

*

الحكمة قوام الخير الخاص ودعامة الخير العامّ

*

البصائر كالأبصار : إذا توجَّهت فى وجه ثم لم تتحوّل عنه رجَعَتْ حَوْلَى

*

أكثر الفضائل آصطلاح : وجوهرُها كلها الصلاح

*

الذليل بغير قيد متقيِّد ، كالكلب لو لم يُسَدْ بَحَثَ عن سيِّد

*

تحسُن المرأة نصف عليمة ، ويقبُح الرجل نصفَ جاهل

*

من أثرى أو ساد ، فلا يَعُدَّنَّ الْحُسَّاد

*

إذَا خدع الطبيبُ المريضَ أعان الدواء ، وإذا خدع المريض الطبيب أعان الداء .

*

العامة أذنابُ من يمسَح رؤوسَهم

*

يهدم الصدرُ الضيق مايبنى العقلُ الواسع

*

العاقل من ذكر الموت ولم ينس الحياة

*

يستأذن الموت على العاقل ، ويدفع الباب على الغافل

*

قد يداويك من المرض اتقاؤه ، ولاينجيك من الموت إلا لقاؤه

*

الغلط. إذا أُدرك تبدَّد . وإذا تُرك تعدَّد

*

المسيح بكر الحكمة

*

على كتب السماء تَهَجَّى الحكمة الحكماء

*

كل غائب يُسلى إلا غائب الثكلى

*

قَلَّما طار اسمُ الشاعر فى حياته فَوَقَعَ بَعْدَ مَماته

*

إذا كَثُرَ الشعراءُ قَلَّ الشِّعر

*

أكثر الشعراء هتافاً بشعره أقلهم راوية

*

الحقيقة ثقيلة فاستعيروا لحقائق العلم خفة البيان

*

ما راع البيض الرعابيب مثل رواعى المشيب

*

تحمل المليحة ثكل الجمال كما يحمل البخيل ثكل المال

*

الشباب أعراس الجمال ، والْمَشِيبُ مآتمه

*

عنْدَ الكمال يبتدئُ الجمال

*

للجمال حين يزول جلالة الملك المعزول

*

العلماءُ أشباه إلا من زاد فى العلم حرفاً

*

السَّقْىُ بعد الْغَرْس ، والتربيةُ قبل الدَّرْس

*

اجْتَنِبِ التفريطَ والإفراط ، تَسْتَغْنِ عن بقراط

*

بُغِّضَ الكبر إلى النفس الكبيرة ، وحُبِّبت الصغائر إلى النفس الصغيرة

*

يا أخا الْعُزْلَة أنت لو طرتَ عن الناس ماوَقَعْتَ إلا عليهم

*

من آستقام آستدام

*

الكَسَل فالجُ النَّفْس

*

الوقت مُصَارعٌ لايزال بك حتى يصيِّرك أجلادا رثَّة ، ولا يدعك إلا وأنت جثة

*

فى شَهْوَة النَّفْسِ شِقْوَةُ الجَسَد

*

العادة شهوة لازمة قاهرة

*

تهرم القلوب كما تهرم الأبدان ، إلا قلوب الشعراء والشجعان

*

الشعر فكر وأُسْلُوب وخيال لَعُوب ورُوحٌ مَوْهُوب

*

منْ ذَهَبَ يَسْتَقصي سرائر النفوس لم يَرْجع

*

رُبَّ آستحياء تحته رياءٌ

*

من عَرَف نفسَه بعد جَهْل وَجَدَها ؛ ومن جَهلَ نَفْسَهُ بعد معرفةٍ فقدها

*

من ظنَّ أنه يُرضى أبدًا يوشك أن لا يُرْضى أحدًا

*

من ذهب بنفسه فَقَدَها ، ومن ذهب بولده ضَيَّعه

*

السجون إذا امتلأَت انفجرت

*

للنفسِ على كل ما عَمِلَتْ عِلَلٌ من هواها

*

ربما منعتْك الحقوقُ الكلام وألجمتِ العهودُ فاك بلجام

*

البلشفية قيصرية . لها جبروت الملك وسَرَفُه ، وليس لها جَلالُه ولا شرفه

*

الوقت عدوّ مجتهد ، لا يدافعه إلا مجتهد

*

الولد ثقلٌ إذا فَسَد ، ثُكْلٌ إذا فُقِد

*

لو لم يرقص الدينار فى النار ، مارقص على الأظفار

*

قَيْد الحديد عَسِر ، وقَيْدُ الحرير لا ينكسر ، لَعَنَ الله الْقَيْدَ كُلَّه

*

لا يقع الملق إلا فى نفسٍ غِرٍّ أو مغرُور

*

قادة الثورة مقودونَ بها ، كالجلاميد تقدَّمت السيل تحسبها تقوده وهى به مندفعة

*

الثورَةُ جنونٌ طرَفاه عَقْل

*

من آستقلَّ بنفسه استوحش ، ومن آستقلَّ برأيه ضلَّ

*

خطة العاقل فى رأسه ، وخطة الجاهل فى نفسه

*

عادةُ السوءِ شَهْدٌ آخرُه عَلْقم ، ووَرْدٌ فى أصوله أَرْقَم

*

الحظ طيرٌ يقع غير مستأذن ، ويطير غير مؤذن

*

من أحبَّ المالَ تعب بجمعه ، ومن أَحَبَّهُ المالُ تعب بتبديده

*

أبى الله أن يتساوى عبادُه إلا فى النَّوْم والْمَوْت

*

الأُمية شلل الأُمم ، الناس معها مُقْعَدُون وإن خُيِّل إليك أنهم يَعْدُون

*

الرأى المسيَّر إن قَعَدْتَ عنه تَغَيَّر

*

العامّة تَدَع صاحبها عند باب التاريخ

*

الحقُّ مَلِكٌ وإن مُلِك ، عزيزٌ وإن أُهِين ، ديَّان وإن دين

*

صبرُ الحازم تجلُّد وصبر العاجز تبلُّد

*

الْقَدَمُ إلى جارى المقدور ، أسرعُ من الماء إلى الحدور

*

الماضى يُسلّ عليك يوما

*

اخْدَعْ من شئتَ إلا التاريخ

*

مامات الحقُّ فى قوم وفيهم رجلٌ حىّ

*

أصدقاءُ السياسة أعداءُ عند الرياسة

*

حِيَلُ العقول تجرى فى وجوه المنفعة ، وحِيَل النفوس فى وجوه المضرَّة

*

التاجر فى حانوته بينَ يدى الرازق ، فلا يُنازع ولا ينازق

*

من لم يتحرّك جمد ، ومن جمد همد

*

محاسنُ وجه الدار الخميلة ، ومحاسن وجه البلد الفنون الجميلة .

*

خُلقت المرأة تنبل بالجمال ، فإن فاتها التمست ما ينبل به الرجال

*

عجبتُ من الصدر يَسَع الحادث الجليل ، ويَضيق بحديث الثَّقيل

*

الحكمة مصباحٌ يَهْديك حتى فى وَضَح الصباح

*

حُبِّبَتْ إلى الشيوخ أحاديث الشباب : حنين الرجل فى علَّته إلى أيام صحته

*

خدع العقل الأُمم ، ويخدع الهوى العقل

*

رُبَّ حُسْن سَمْت أتى الرجالَ من الصَّمْت

*

حُبُّ القلوب يزول ، ويبقى حب العقول

*

مجد السياسة عرضة للأحداث ، وقد ينهدم على أهله فى الأجداث

*

إذا طال البنيانْ عن أُسِّه انهدم من نفسه

*

سلطانُ الفضيلة أعزُّ من سلطان العشق . سل عُذرة[1] عن العفاف كيف قتلها ، وسل الأديرة عمن دخلها ؟

*

مَنْ فَقَدَ الضمير لم يَجد مسّ التحقير

*

ارحمْ نفسَك من الحقد فإنه عَطَب ، نارٌ وأنت الحَطَب

*

كل نار طاهرة مطهِّرة إلا نار الحقد

*

كاد صفحُ الوالد يَسْبق ذَنْبَ الولَد

*

لو حطَّمت السِّنُّ المرأة ما حطَّمت مرآتها

*

إنما المرءُ مروءته

*

لارعد مع صحو ، ولا كوعيد العاجز لغو

*

القَمَّل فى لبدة الأسد وهو مُطْلق : أعز من الأسد وهو وراءَ الحديد

الحق المسلح أَسَدُ عرينه ، والحقُّ الأعزل أسد زينة

*

لايُبحث عن القتلى والقتال دائر

*

---

(١) بن عذرة : قبيلة اشتهر بها الهوى العذرى .

الحق كبير فلا تُصَغِّروه بالصغائر

*

من حمل نوائب الحقِ حمل الأمانة كلَّها

*

العالم فى كل زمان بلد ، المال فيه أمير آخر الأبد

*

الأعمى من يرى بغير عينه ، والأصم من يسمع بغير أذنه

*

التواضع المتكلَّف زهرٌ مصطَنَع ، لا فى العيون نَضرٍ ولا فى الأنوف عَطر

*

كُلُّ بنيانٍ يُهْدَم من رأسه ، وبنيانُ الأوهام يُهدَم من أسّه

*

يُؤذى العاقلُ المفتون ، كما يُؤذِى المجنون

*

الحكمة أن تُحْسن قَوْلًا وفعلا

*

زواج العشق ورد ساعة ، وزواج المال ورد صناعة ؛ والبركة فى زواج موفَّق يكون لعمارة البلد ، وفى سبيل الولد

*

ثلاثة مُسَخَّرُون لثلاثة آخر الأبد : الفقير للغنىّ ، والضعيف للقوىّ ، والبليد للذكى

*

قلما رفعتْ رَجُلًا نفسُه فوُضع ، وقلما وضعتْ رَجُلًا نفسُه فرُفع

*

من ساءَ خُلُقه اجتمع عليه نكد الدنيا

*

ضِيقُ الرِّزق من ضيق الخُلُق

*

نَسْج القلوبِ من شهوات

*

دودُ الحرير أَخرق ، هلك تاركاً للناس خير مالبسوا فما تركواله منه كفناً ؛ والنحل حكيم طَعِم من كل الثمرات ثم أَطْعَم

*

الشباب مُلاوة كلها حلاوة

*

لا أعلم لك منصفا إلا عملك ، إذا أحسنته جمَّلك وإذا أَتقنته كملك

*

إذا رأَيت ساعيا مجتهدا تمطله الأَسباب ، وتطاوله الغايات فاعلم أَنَّ حظه قاعد

*

القويُّ من قَوى على نَفْسه

*

العقولُ الكبار دُرَرٌ كبار ، لا تخلو واحدة من خَدْش يظْهره الخلق أَو يُخفيه

*

جلائل الرغائب مخبوءة فى كبار الهمم

*

يتقى الناس بعضهم بعضا فى الصغائر ، ولا يَتَّقون الله فى الكبائر

*

من علم من نفسه الكرم ربأً بها عن مواقف اللؤم

*

كفى بزوال الألم لذة ، وكفى بفطام اللذة ألما

*

مَنْ لم يكن فى عنان لذة أو تحت مهماز ألَم . فليس على مَيْدان الحياة

*

من عاش وعاشر أملَّ محباً أو ملَّ محبوباً

*

الجماعات مطايا أهل المطامع تبلغهم إلى منازل الشهرة

*

فى الثورة لايُقبلُ الرأى من أهل المشورة على أصالة رأيهم وصدق نصيحتهم ، ولكن على أسمائِهم فى الألسنة وموقعهم فى القلوب

*

الناس فى الألم والموت سواءٌ . لم تسلم من الدمع جفون ولم يمتنع على الصديد مدفون .

*

الفتيات نائمات فإذا تَزَوَّجْن انتبهن . والفتيان سُكَارَى فإذا تزوَّجوا صَحَوْا

*

شَبَحُ الفقر عادٍ رائح على اثنين : زوج المضيِّعة ، وامرأة المقامر

*

بانى نفسه لايُبالى ماهَدَم

*

رُبَّ باكٍ كضاحك المُزْن ، دمعٌ ولا حُزْن

*

من قَعَدَ به المال لم يَقُم به شيء

*

ثورةُ النفوس تقطع الحبال ، وثورة العقول تقلع الجبال

*

الْمقْعَدُ خَيْرٌ من القاعد ، والكسيح خيرٌ من الكسلان

*

إذا صَدَقَت النية فكلُّ مذهبٍ جميل ، وكل رأْى أَصيل

*

عجزَ المغتابُ أن يكون سَبُعاً ، فرضى لنفسه أن يكون ضَبُعا

*

رَأىُ الجماعات بعضُه من بعض ، وكلُّه من الفرد كموج البحر بعضه من بعض وكله من الريح

*

من رَفَعَ شِرَاع العلمِ بلغَ ساحلَ الحياة وهو فى أول اللجة

*

الجميلُ إلى الجميل يميل ، والحكمةُ تُحب الفن الجميل

*

مَثَلُ الشاعر لم يرزق الحكمة ، كالمغنى : صناعةٌ ولاصوت

*

العاقلُ يكلِّمُ أناساً ببعض عقله ، وأناسا بعقله كلِّه

*

ذكروا للبُخْلِ مائةَ عِلَّة ، لا أعرفُ منها غير الجبلَّة

*

الاعترافُ أَوْجَهُ الشَّفَعَاء

اعترافُ الخاطئات استبسال ، وفرارٌ من الاسترسال ، فانتشلوهن بعَفْوكم من الهُوَّة ، وأَحيطوا ضعفَهنَّ من حلمكم بقُوَّة

*

الحكمة فى أفواه العلماء ، وعلى شِفاه الدهماء ؛ كالدرِّ يكون فى قاع البحور ، ويكون فى نواعِم النحور ، وكشُعاع الشمس يقعُ على الوَحل كما يقعُ على الزهْر

*

الموتُ أَولُ المخاوف وآخرُها

*

مَنْ نَقَضَ مَوْثِقه ، نَفَضَ عنه الثقة

*

إذا ذهبت الأُمم بقيت الرمم

*

إذا زاد تواضع الكبراء كان تلطفاً فى الكبر

*

لايزال الشعر عاطلًا حتى تُزَيِّنه الحكمة ، ولا تزال الحكمة شاردة حتى يُؤويها بيت من الشعر

*

الوقف من حرص النفوس ويراد به المال لا البنون

*

بين الحلم وَالخَورَ جسرٌ أَدق من الصراط.

*

ثلاثة لثلاثة بالمرصادِ : الموت للحياة ، والشقاء للذكاء ، والحسد للفضل

خَفِ اليائسَ فإنه لايَخَاف

*

كِبْرُ الصغير قبيح كتواضعه ، كلاهما فى غير موضعه

*

حظ النفسِ من الحرص حظ المقاتل من السلاح ، إذا زاد عن حاجته تخبَّل ، وناءَ بما حمل ، وإذا قصر عنها تقهقر وانخذل

*

اثنان فى النار دنيا وأخرى : الحاقد والحاسد

*

الدين السمح فى الرجل السمح ، والجنس الكريم فى الرجل الكريم ، فأحبب من ليس من دينك تُحَبِّبْ دينَك إليه وأكرم من ليس من جنسك يَكْرُم جنسُك عليه

*

آفة النصح أن يكون جدالا ، وأذاه أن يكون جهارا

*

فى الدنيا مزيد من العقل للعاقل ، ومتمادى فى الجهل للجاهل

*

اثنان معاديهما فى خسرٍ : القوى المغلَّبُ ، والرجل المحبب

*

شرف الكبراء كالورد فى إبان غضاضته : إذا نزعت منه ورقة انحل وانتثر ، وانتقض جميعه على الأثر

*

تَجْمَع اللغاتِ على اختلافها الحكمةُ ، كما تجمع شتى المعازفِ النغمة

*

لا يكن تلطُّفُك مُذالا . ولا تحبُّبُكَ ابتذالًا فإن الطُّفَيْليين أعذب الناس كلاماً ، وأكثرهم ابتساماً

*

أساطين البيان أربعة : شاعر سار بيته . ومصوِّر نطق زيته ، وموسيقى بكى وتره ، ومثال ضحك حجره

*

من الأُمهات تُبنى الأُمم .

*

الأُمية فى العقلاء شكائم ، تتأَسى بها البهائم .

*

الشباب من الموت خطوة أَو مافوقها ، والمشيب من الموت خطوة أَو مادونها .

*

الطير لا يقرب أفقا فسد فضاؤه ، والحرية تهرب من بلد اختل قضاؤه .

*

إذا ضغط على قاضى الأَرض فى بلد ضغط عليه قاضى السماء

*

شُورَى من الحَجَّاج وزياد ، خير من الفَرْدولو كان عُمر .

*

خُذْ من مال الناس ما شِئتَ فإن وارثَكَ رادُّه إليهم .

*

ليس العلم لك بِسِفر ، حتى يكون لك فيه سطرٌ ، وليس الأَدب لك كتاباً ، حتى تزيد فيه بابا .

*

الإنسان لولا العقلُ عجماء ، ولولا القلبُ صخرةٌ صَمّاء

*

من وضَع نفسَه قصر عن فضيلةِ التواضع

*

المرءُ كَلِفٌ بما أَلف

*

المغرورُ مَن يظنُّ الناس لا يستغنون عنه ؛ والمخدوعُ مَن يظنُّ أحدا من الناس لا يستغنى الناس عنه

*

من أَخلَّ بنفسه فى السِّرِّ أَخلت به فى العلانية

*

إذا رأَيتَ المرأَةَ لا تَدَعُ صَلاتها فلا تَثق بها كلَّ الثقة ؛ وإذا رأَيتها لا تضعُ مرآتها فلا تتهِمها كلَّ الاتهام

*

العاقل لايثقُ حتى يُجرِّب ، ولا يَتَّهِمُ حتى يَتَبَيَّن

*

ثقةُ العاطفة شَهْر ، وثقة العقل دَهْر

*

الثقةُ وَثاقُ الأَحرار

الثقة مراتب ، فلا تَرفع لعُليا مراتبها إلا الشريك فى المُرّ ، المعين على الضُّرّ ، الأَمين على السرّ

*

من أَحسن الثقة بنفسه ، فليثق بعدها بمن شاء

*

الوقتُ آلةُ الرزق إذا اسْتُعْمل ، وآفةُ الرزق إذا أُهْمل

*

ياعدوّ الزواج : لو كنتَ العَزَبَ القُدْسىَّ عيسى ابن مريم ما استطعت أن تقطعَ له نَظْمًا ، أو تُعطِّل له سُنَّة

*

ليس للدنيا ببَعل مَنْ خطبها بلا عمل ، وصَحبها بلا أَمل

*

الحقُّ نبىٌّ قليل التَّبع ، والباطلُ مُشعوذٌ كثيرُ الشِّيَع

*

جئْنى بالنَّمِر العاقل ، أَجئْكَ بالمستبدِّ العادل

*

لو طُلِبَ إلى الناس أن يحذفوا اللغو وفضول القول من كلامهم ، لكاد السكوت فى مجالسهم يحلُّ محلَّ الكلام . ولو طُلِب إليهم أن ينقوا مكاتبهم من تافه الكتب وعقيمها وألا يدخروا فيها إلا القيم العبقرىّ من الأسفار ، لما بقى لهم من كل ألف رف إلا رف .

تم